جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

آيات الاستجارة في القرآن الكريم
دراسة بلاغية تحليلية

إعداد

د/ أحمد محمد محمد عبد الفتاح

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق

(**العدد السابع والثلاثون**)

(**الإصدار الرابع** .. **نوفمبر**)

(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

آيات الاستجارة في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية

أحمد محمد محمد عبد الفتاح
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: am2006246@gmail.com

الملخص:

يدور هذا البحث حول آيات الاستجارة في القرآن الكريم؛ وأعني بآيات الاستجارة تلك الآيات المباركة التي اشتملت على لفظة (استجار) أو مشتقاتها، وهي ستُّ آياتٍ محور البحث.

وقد خصصت هذه الآيات بالبحث والدراسة؛ لأنها تتحدث عن حالة تعتري الإنسان؛ فحينما تستبد بالنفس شِدّة، أو تحلُّ بها مُلِمَّة فإنها تتطلع إلى مخرج، وتتشوّق إلى ملجأ، واللّجَأ إلى الله تعالى والاستجارة به من لوازم العبودية له سبحانه، وقد حكت آيات الاستجارة مناسبات مختلفة، ومن ثمّ يأتي دور البلاغة لمحاولة الكشف عما تفيض به كل آية من أسرار تعبيرية، ودقائق أسلوبية؛ وذلك من خلال النظر إلى كل آية في موقعها غير مفصولة عما قبلها وما بعدها من النظم القرآني، وعلاقة الكلمة داخل الآية بالسياق والمقام الذي وردت فيه، وبيان مدى مواءمتها للمعنى والغرض، ووفائها لحاجة المقام والموقف.

وقد اشتملت آيات الاستجارة على كثير من الأسرار البلاغية واللطائف الأدبية التي تعاونت على إظهار المقصود منها، وتعددت الصيغ التي جاء عليها لفظ الاستجارة بين الاسم، والفعل المضارع، والماضي، والأمر، ولكل صيغة عطاؤها وإيحاؤها وظلالها؛ فصيغة الكلمة ووزنها وجرسها لها علاقة وثيقة بالمعنى الخاص بها، وكذلك المعنى العام، فكأنما اختص ذاك المعنى بتلك البنية؛ فإذا تغيرت الصيغة تغير المعنى تبعًا لذلك.

الكلمات المفتاحية: آيات الاستجارة – القرآن الكريم – دراسة – بلاغية تحليلية.

Verses of seeking refuge (Istighara) in the Holy Quran: An Analytical Rhetorical Study

Ahmed Mohamed Mohamed Abdel Fattah
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language in Zagazig, Al-Azhar University, Egypt.
Email: am2006246@gmail.com

Abstract

This research revolves around the verses of seeking refuge (Istighara) in the Holy Quran; I mean by verses of seeking refuge (Istighara) those blessed verses that include the word (Istighara) or its derivatives, and they are six verses that are the focus of the research. These verses have been devoted to research and study because they talk about a state that befalls a person; when the soul is overcome by hardship, or a calamity befalls it, it looks for a way out, and longs for a refuge, and resorting to God Almighty and seeking refuge in Him are among the requirements of servitude to Him, the Almighty, and the verses of seeking refuge (Istighara) have narrated different occasions, and then comes the role of rhetoric to try to reveal what each verse overflows with of expressive secrets and stylistic subtleties; This is done by looking at each verse in its place, not separated from what precedes and follows it in the Qur'anic system, and the relationship of the word within the verse to the context and situation in which it appears, and clarifying the extent of its suitability for the meaning and purpose, and its fulfillment of the need of the situation and position.

The verses of seeking refuge (Istighara) included many rhetorical secrets and literary subtleties that cooperated to reveal what was intended from them, and the forms in which the word Istighara came varied between the noun, the present tense verb, the past tense, and the imperative, and each form has its own giving, suggestion, and shadows; the word's form, weight, and tone have a close relationship with its specific meaning, as well as the general meaning, as if that meaning was specific to that structure; if the form changes, the meaning changes accordingly.

Keywords: Verses of seeking refuge (Istighara) – The Holy Qur'an – Analytical Rhetorical Study

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي يَهدي من استهداه، ويُجيب من دعاه، ويجير من استجارَه ولاذَ بحماه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– وعلى آله، وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن من أشرف ما يقدمه الباحثون في بحوثهم، وأسمى ما يسطره المؤلفون في مؤلفاتهم ما كان متعلقًا بكتاب الله –تعالى– ودراسة معانيه، واستجلاء قيمه، وآدابه الرفيعة، واستظهار ملامح بلاغته، ومظاهر إعجازه.

وللقرآن الكريم أسرار كثيرة لا يحيط بها إلا العليم الخبير، ولا يعطي الحق –سبحانه وتعالى– هذه الأسرار إلا لمن لجأ إليه واستجار به.

ولأهمية البحث في هذا الكتاب المعجز، ومحاولة مقاربة أسراره وقع اختياري على هذا الموضوع الذي جاء بعنوان: (آيات الاستجارة في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية).

وأعني بآيات الاستجارة تلك الآيات المباركة التي اشتملت على لفظة (استجار) أو مشتقاتها، وهي ستُّ آياتٍ محور البحث.

وقد خصصت هذه الآيات بالبحث والدراسة؛ لأنها تتحدث عن حالة تعتري الإنسان؛ فحينما تستبد بالنفس شِدّة، أو تحلُّ بها مُلِمَّة فإنها تتطلع إلى مخرج، وتتشوّق إلى ملجأ، واللّجَأ إلى الله –تعالى– والاستجارة به من لوازم العبودية له سبحانه، وقد حكت آيات الاستجارة مناسبات مختلفة يأتي ذكرها –بمشيئة الله تعالى– في مباحث البحث.

كما أن هذه الآيات المباركة لم يتطرق إليها بحث بحديث بلاغي –على حد علمي– لذا رأيت تناولها بالدراسة، والوقوف على شيء من غاياتها ولطائفها البلاغية، وملامح الإعجاز القرآني من خلالها.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع.

المقدمة: بيَّنت فيها أهمية الموضوع، وخطته، ومنهجه.

التمهيد: ذكرت فيه معنى الاستجارة، وآياتها في القرآن الكريم مع الإشارة الموجزة لمقام كل آية.

المبحث الأول: الاستجارة في سياق إغراء الشيطان لمشركي قريش يوم بدر.

المبحث الثاني: الاستجارة في سياق بيان عظمة الإسلام، ونشر سماحته.

المبحث الثالث: الاستجارة في سياق بيان قدرة المولى –عز وجل– وهيمنته على كل شيء.

المبحث الرابع: الاستجارة في سياق إجابة داعي الله والإيمان به.

المبحث الخامس: الاستجارة في سياق بيان أنه لا مجير للكافرين من العذاب إلا المولى جل وعلا.

المبحث السادس: الاستجارة في سياق بيان أن الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم –مع مكانته– لن يجيره من الله –عز وجل– إلا إبلاغ رسالته.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج التي أسفر عنها البحث.

ثم فهرس المصادر والمراجع.

منهج البحث:

سرت في هذه الدراسة على المنهج التحليلي؛ لمحاولة استنباط ما يفيض به من أسرار تعبيرية، ودقائق أسلوبية، فمن خلاله ندرك المعاني التي تبوح بها آيات الاستجارة في القرآن الكريم؛ وذلك من خلال النظر إلى كل آية في موقعها غير مفصولة عما قبلها وما بعدها من النظم القرآني، كما أنه يبرز في الوقت ذاته علاقة الكلمة داخل بالسياق والمقام الذي وردت فيه، وبيان مدى مواءمتها للمعنى والغرض، ووفائها لحاجة المقام والموقف.

أسأل الله –عز وجل– العون والقبول

د/ أحمد محمد محمد عبد الفتاح

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق

التمهيد

أولًا: الاستجارة لغة واصطلاحًا:

تعددت المفاهيم والكلمات في المعاجم اللغوية التي تترادف وتتقارب فحواها ومعانيها مع لفظ الاستجارة؛ كالإجارة، والإلجاء، واللجوء، والإيواء، والذمة، والأمان، ومن أهم ما يتصل بالمفهوم المراد به في البحث: طلب الأمان والحماية والإغاثة.

ويعود أصل لفظ الاستجارة إلى الفعل استجار يستجير، واستجر استجارة فهو مُستجير، والمفعول مُستجار، وجَارَ واسْتَجَارَ: طلبَ أن يُجَار، أو سأله أن يجيره، وأجاره الله من العذاب: أنقذه، واستجار بالله: استغاث به والتجأ إليه، واستجار فلانًا: سأله أن يؤمنه ويحفظه، أو أن يوفر له الأمن والحماية، واستجار بفلان استغاث به والتجأ إليه، واستجاره: سأله أن يجيره، واستجار بصاحبه: جاء يستجيره ويطلب منه أن يؤمنه ويحميه(١).

وقال صاحب المصباح المنير: "والجار المستجير أيضًا، وهو الذي يطلب الأمان، واستجاره طلب منه أن يحفظه فأجاره"(٢).

---

(١) ينظر: لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠ – ٧١١هـ)، تحقيق/ ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السيد (دار التوفيقية للطباعة). (د. ط، ت)، وتاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج (مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م). (د. ط)، والقاموس المحيط، للفيروز ابادي (الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م). (د. ط). ومعجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف د/ أحمد مختار عمر (عالم الكتب، ط الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م): جور.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي (بيروت، المكتبة العلمية): ١/ ١١٤.

والمجير اسم فاعل من أجار يجير إجارة؛ أي: أنقذ من استجار به، وأغاث من استغاث به[١].

وجاء في هذا السياق اللغوي العديد من الآيات القرآنية التي تؤيد هذا المعنى؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢].

وبذلك يمكن القول بأن الاستجارة اصطلاحًا تعني: طلب الجوار والحماية والأمان والعون والمساعدة من شخص ذي قوة ومنعة ونفوذ تحت ظروف اضطرت المستجير إلى ذلك؛ ليحميه ويدفع عنه ما يخافه ويخشاه ويهدده، وهي بذلك عقد أمان بين المستجير والمجير[٢].

وهناك من عرف الجوار بقوله: الجوار إذًا علاقة بين قوي مجير وضعيف أو مستضعف مُجار[٣].

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الشامي، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م): ٥٠٦.

(٢) ينظر: المجتمع العربي بين التاريخ والواقع، حسن عبد الرازق منصور، (أمواج للطباعة والتوزيع، الأردن، ط الثانية، ٢٠١٣م): ٩٥، وما بعدها، ومبادئ القانون الدولي العام، محمدي حافظ غانم (مطبعة دار النهضة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٧م): ٥٩٤.

(٣) الانتماء في الشعر الجاهلي، سليم فاروق أحمد (من منشورات اتحاد الكتاب العربي، ١٩٩٨م): ١/ ٤٧٠.

وفي كل الأحوال فإن للإجارة عهد وذمة وأمان، وهذا ما يطلق عليه حبل الجوار[١]، فقد جاء في الحديث: "بيننا وبين القوم حبال" أي عهود ومواثيق[٢]، وفي شعر كثيّر عزة:

وأقول للضيف أهلًا ومرحبًا وآمنه جارًا وأوسعه حبلًا[٣]

ثانيًا: آيات الاستجارة في القرآن الكريم:

وردت لفظة (استجار) ومشتقاتها في القرآن الكريم ثماني مرات في ست آيات:

الآية الأولى: في سورة الأنفال في سياق إغراء الشيطان لمشركي قريش يوم بدر؛ عندما أوهمهم أن النصر حليفهم، وأنه معين لهم، لكن ما لبث أن خذلهم ونكص على عقبيه لما رأى جنود الله –تعالى– تقاتل مع المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

الآية الثانية: في سورة التوبة في سياق بيان عظمة الإسلام، ونشر سماحته: **قال تعالى:** ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، تأليف/ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق/ أحمد محمد شاكر (مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م): ٤١٠، ولسان العرب: جور.

(٢) الجوار في الشعر العربي حتى العصر الأموي (حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ١١، الرسالة ٧٠، ١٩٩٠م): ٣٢.

(٣) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ): ٢٢٠.

فالاستجارة جاءت للذين استبيحت دماؤهم من المشركين؛ حيث أمر المولى -عز وجل- رسوله أن يُجير من أستأمنه منهم، حتى يسمع كلام الله، ثم إعادته إلى دياره التي يأمن فيها، وذلك لأنهم جاهلون بحقيقة الإسلام.

الآية الثالثة: في سورة المؤمنون في سياق بيان قدرة المولى -عز وجل- وهيمنته على كل شيء: **قال تعالى:** ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

فسبحانه وتعالى هو الذي يجير من يشاء، ولا يقدر أحد أن يجير على الله، أو يدفع الضر أو الهلاك عمن أراد إهلاكه.

الآية الرابعة: وردت الاستجارة في سورة الأحقاف في سياق إجابة داعي الله والإيمان به، حين أرسل الله -جل وعلا- إلى رسوله -صلى الله عليه وسلم- طائفة من الجن يستمعون منه القرآن، فلما حضروه قال بعضهم لبعض: أنصتوا، فلما أنهى قراءته انصرفوا إلى قومهم من الجن محذرين إياهم من عذاب موجع أليم إن لم يؤمنوا به.

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

الآية الخامسة: وردت في سورة الملك في سياق بيان أنه لا مجير للكافرين من العذاب إلا المولى جل وعلا؛ فكفار مكة كانوا يتمنون موت الرسول -صلى الله عليه وسلم- ويتصورون أن بموته سوف يمحى دين الإسلام وينتهي كل شيء.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

الآية السادسة: وردت في سورة الجن في سياق بيان أن الرسول الكريم– مع مكانته– لن يجيره من الله –عز وجل– إلا إبلاغ رسالته: **قال تعالى:** ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢].

فالآية بيان لعجزه –صلى الله عليه وسلم– عن شئون نفسه أمام قدرة خالقه –عز وجل– بعد بيان عجزه عن شئون غيره في الآية السابقة؛ **قال تعالى:** ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

المبحث الأول: الاستجارة في سياق إغراء الشيطان لمشركي قريش يوم بدر.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

<u>مقام الآية وعلاقتها بما قبلها:</u>

وردت هذه الآية في مقام الحديث عما يفعله الشيطان من تزيين الأعمال القبيحة، وكانت الآيات قبلها تحث على الطاعة، وتنهي عن التنازع والفرقة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وتحذرهم من التشبه بالمشركين يوم بدر؛ حيث خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وفي آية الاستجارة يذكرهم المولى –عز وجل– بما حصل عندما زين الشيطان للكفار قتال المؤمنين يوم بدر، وأوهمهم أن النصر حليفهم؛ فهم أكثر عددًا وعدةً، وأنه معين لهم، لكن ما لبث أن خذلهم ونكص على عقبيه لما رأى جنود الله –تعالى– تقاتل مع المؤمنين.

فالآية تنبه على أنّ كلّ ما يزين به الشيطان إنما هو خيال لا حقيقة له؛ فالتزيين وعد قطعه على نفسه لما لعنه الله –تعالى– وأخرجه من الجنة، قال الحق –جل وعلا– حاكيًا مقولته: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، ومن هذا التزيين ما فعله بكفار قريش يوم بدر؛ حيث زيّن لهم أعمالهم.

وعن سبب نزول الآية: رُوي أن الشيطان تمثّل بصورة شخص يدعى: سراقة بن مالك ابن جعشم؛ فعن ابن عبّاس –رضي الله عنهما– "قال: (جاء إبليس يوم بدر في جُند من الشّياطين، معه رايته، والشّيطان في صورة رجل من بني مُدلج، في صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ، فقال الشّيطان للمشركين: (لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) فلما اصطف الناس أخذ رسول الله –ﷺ– قبضة من التراب، فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه – وكانت يده في يد رجل من المشركين – انتزع إبليس يده، فولى مدبرًا هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة: تزعم أنك جار لنا؟ قال: ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وذلك حين رأى الملائكة"(١).

التحليل البلاغي:

ابتدأت الآية بقوله: (وإذ...) وهي ظرف لما مضى متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد إذ زين لهم الشيطان أعمالهم، والواو عاطفة هذا الكلام على ما قبله، وقد أريد من هذا الظرف وما أضيف إليه تذكيرهم بما حصل عندما زين الشيطان للكفار قتال المؤمنين يوم بدر، وتنبيههم للطف عظيم حفّهم من الله تعالى، والضمير في (لهم) يعود –في الآية السابقة– إلى الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري: ١٣/ ٧. وينظر: الجامع لأحكام القرآن، تأليف/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق/ هشام سمير البخاري (دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م): ٨/ ٢٦.

وتعانق مع التعبير بـ(إذ) التي هي ظرف لما مضى التعبير بالماضي (زين)؛ ليدل على تحقق وقوع الإغواء والتزيين من الشيطان لعملهم المحبط، و(زين) أي: حسّن لهم عملهم من الخروج لقتال المؤمنين فخرًا بأنفسهم وقوتهم.

وقدم الجار والمجرور (لهم) على المسند إليه (الشيطان)؛ ليقوي الحكم بوقوع التزيين والإغواء ويؤكده، كما أن تقديم الجار والمجرور فيه من الإثارة والتشويق ما يجعل المتلقي في انتظار ما سيذكره المتكلم، ولا يمنع أن يكون التقديم للاختصاص؛ فالكلام في الآية محصور بين الكفار والمؤمنين في هذا اليوم، والشيطان أغوى الكفار دون المؤمنين.

وجاءت جملة (وقال لا غالب لكم....) موصولة بسابقتها بالواو، وهي قوله: (وإذ زين لهم...) للتوسط بين الكمالين، وقد أفاد هنا تنوع أفعال الشيطان في ذلك اليوم؛ فقد وسوس، وزين وقال، حتى أغواهم لتحريضهم ضد رسول الله –ﷺ– وأصحابه ، ووراء الوصل بيانٌ لما يفعله الشيطان لإقناع الكافرين.

ويلاحظ التعبير باسم الفاعل المنفي (لا غالب) الذي يفيد الثبوت والدوام؛ أي انعدام وجود الغالب البتة، وأراد الشيطان زيادة تحفيزهم؛ فحدد انعدام الغلبة بالزمن، فقال: (لا غالب لكم اليوم)، ولعل الثقة بالغلبة جاءت من كثرة عددهم مقارنة بعدد المؤمنين؛ فقد كانوا أكثر من الألف مقابل ما يقرب من ثلاثمائة من المؤمنين.

والتعبير عن المؤمنين بلفظ (الناس) مجاز مرسل علاقته: الكلية؛ حيث أطلق الكل؛ وهو الناس وأراد الجزء؛ وهم المؤمنون ممن شهدوا بدرًا، والتعبير بالمجاز –هنا– أظهر مدى ثقة الشيطان العمياء التي جعلت حمايته المزعومة تتعدى من شهد بدرًا من المؤمنين إلى جميع الناس؛ فلفظة (الناس) أفادت عموم نصرة الشيطان وجواره للمشركين بقطع النظر عمن هم الناس، وهذا ما انعكس على المشركين؛ فأقدموا على محاربة المؤمنين بكل غرور فانهزموا شر هزيمة، فالتعبير بـ(الناس) فيه من المبالغة وقوة التأثير ما ليس في غيره في هذا الموقف.

وتعانق مع التعبير بالمجاز المرسل التعبير بالجملة الاسمية المؤكدة في قوله تعالى: (وإني جار لكم) والجملة الاسمية –كما هو معلوم– تفيد الثبات والاستمرار، وهما من عناصر القوة والتوكيد؛ فالشيطان عندما أراد بث مزيد من الطمأنينة في نفوس الكفار عمد إلى التأكيد بأنه مُجير لهم وناصرهم.

وفي لفظة (جار) تورية؛ فأول ما يتبادر بالذهن أن المقصود بالجار – هنا–: جار الدار أو القريب، لكن المعنى المقصود هو من يؤوي غيره ويجيره وينقذه؛ والسبب في فهم المعنى بأنه من يُجير غيره وينقذه هو ذكر الله –تعالى– للهروب (نكص على عقبيه).

وبالنظر إلى الروايات التي تحدثت عن تمثل إبليس للمشركين في صورة سراقة بن مالك يكون الإسناد في الآية من التزيين، وقول لا غالب لكم...إلخ إلى الشيطان من المجاز العقلي، وعلاقته السببية؛ إذ الفاعل حقيقة هو الشيطان، وصدور التزيين والقول من سراقة بسبب وسوسة الشيطان(١).

والفاء في قوله: (فَلَمَّا) عاطفة، والتعبير بـ(لمّا) الحينية الدالة على الوقت والحين، والمتضمنة معنى الشرط، والتي تدل على أنه حين كان كذا يكون كذا، وترتب الثاني على الأول في اللحظة نفسها، ومجيء فعل الشرط وجوابه ماضيًا يدل على أن هذه الأحداث مضت وانتهت؛ لذا فهي متحققة الوقوع والثبوت، والتعبير بها يدل على أن الشيطان استمر وقتًا في إغواء الكفار حتى اشتبكوا مع المؤمنين؛ فالمد والتضعيف فيها يوحيان بذلك، وورود جواب الشرط بعد فعله مباشرة يدل على أن الشيطان بمجرد بدء المعركة رجع وتقهقر وتخلى عن

(١) ينظر: التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، تأليف/ محمد الطاهر بن محمد ابن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) (مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م): ١٠/ ٣٥.

الكفار، وفي ذلك دلالة –أيضًا– على أن الغلبة من البداية كانت للمؤمنين مع قلة عددهم وعتادهم.

وقوله: (تراءت) أصله من تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضًا[١]، وعلى ذلك يكون التراثي في الآية كناية عن التلاقي بدليل نكوص إبليس على عقبيه؛ فالنكوص: الرجوع إلى الوراء عن الخير خاصة[٢]، وإبليس –عليه اللعنة– أمره كله شر؛ لكن من كثرة وسوسته لهم وتصميمه على خوض هذه الحرب وأنها فيها الخير لهم بالخلاص من عدوهم أُعتبر مساندته لهم خير.

وقوله تعالى: (عقبيه) مثنى عقب، وهو مؤخرة القدم، ومنه حديث الرسول –صلى الله عليه وسلم–: "ويل للأعقاب من النار"[٣]، وخص العقبين بالذكر؛ لتفظيع التقهقر؛ فعقب القدم أخس القوائم لملاقاة الغبار والأوساخ، والنكوص لا يكون إلا على العقبين لأنه الرجوع إلى الوراء، و(على) مفيدة للتمكن من السير بالعقبين[٤].

وبالتأمل في الآية الكريمة يلحظ المفارقة التصويرية عميقة الدلالة والتأثير من حيث تصوير موقف الشيطان بين دلالة قوله: (وإني جار لكم)، وبين دلالة قوله: (نكص على عقبيه)؛ تلك المفارقة الكاشفة بجلاء عما بين الوعد المزعوم الذي لا يعدو وهمًا من قبل الشيطان، وبين الحقيقة المزرية لواقعه المتمثل في النكوص على عقبيه، والتأكيد على أن هذا هو ديدنه في مواجهة الحق المبين.

---

(١) ينظر: لسان العرب: رأي.

(٢) ينظر: السابق: نكص.

(٣) صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ – ٢٦١هـ) (ألفا للنشر والتوزيع، ط الأولى، ٢٠١١م – ١٤٣٢هـ): باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم/ ٢٤٠، صـ ٢٧، وما بعدها.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠/ ٣٧.

وبالنظر إلى الروايات التي تحدثت عن تمثل إبليس للمشركين في صورة رجل يكون قوله تعالى: (فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه) كناية عن خذلان الشيطان وتخليه عنهم، ومن ثمّ ضعفه وهزيمته، وإذا نظرنا إلى أن الأمر لا يتعدى الوسوسة وأنه لم يتمثل في صورة رجل يكون في قوله تعالى: (نكص على عقبيه) استعارة تمثيلية؛ حيث استعار هيئة رجوعه عن مناصرته لهم بعد تزيينه بهيئة من رجع القهقري إلى الوراء، وعلى أية حال فالآية الكريمة توضح ابتدائهم المطمع وانتهائهم المؤيس، وفيها ما فيها من الحسرة وخيبة الأمل؛ فما كانوا يحسبونه مجيرهم كان سببًا في هلاكهم.

وقال إبليس لمشركي قريش عندما خذلهم إني أتبرَّأُ منكم (وقال إني برئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب) وأول ما يلحظ تكرار لفظ القول: (وقال)؛ لبيان تخلي إبليس عن تابعيه؛ فيزين لهم السوء ويوعدهم بالنصر، فإذا وقعوا في السوء وضيعوا أنفسهم تخلى عنهم.

وجاء التأكيد بـ(إن) واسمية الجملة (إني برئ) وكأن الشيطان أراد أن يجعل أمر تبرأه من المشركين أمرًا ذائعًا مشهورًا فيهم، لا يشك فيه شاك ولا ينكره منكر؛ وذلك من شدة خوفه.

والتعبير بالاسم (برئ) دون غيره يدل على أنه أراد أن يقطع كل صلة بينه وبينهم؛ فالتعبير بالجملة الاسمية المؤكدة يفيد الثبوت والاستمرار وقوة الدلالة وتوكيد المعنى؛ فهي تفيد تأكيد المعنى، وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية؛ ولذلك كان تأثيرها أقوى من الجملة الفعلية في بعض المقامات[١].

(١) ينظر: البلاغة العالية (علم المعاني)، تأليف/ عبد المتعال الصعيدي، قدّم له وراجعه وأعد فهارسه د/ عبد القادر حسين (مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، ط الثانية، ١٤١١هـ – ١٩٩١م): ٥٨.

والمقصود بالرؤيا في قوله تعالى: (إني أرى ما لا ترون) الرؤية البصرية؛ أي رؤية إبليس للملائكة وهي تنزل من السماء.

وآثر النظم القرآني التعبير بالمضارع (أرى) الذي يفيد التجدد؛ فكأنه رأى جبريل –عليه السلام– قد نزل المعركة ومعه إمداد من الملائكة لا ينقطع، وقد تحدّث عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– عن هذا المشهد الإيماني الذي يفيض يقينًا وتضرعًا وتوكلًا واستجابة وتأييدًا، فقال: "لمّا كان يوم بدر نظر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا فاستقبل نبيّ الله –صلى الله عليه وسلم– القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض) فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: (إذ تستغيثون ربكم ....) [الأنفال: ٩] فأمده الله بالملائكة"[(١)]، وقد أخرج البخاري في باب شهود الملائكة بدرًا عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال يوم بدر: "هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب"[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم: باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم، رقم/ ١٧٦٣، صـ ٤٦٩، وما بعدها.

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تأليف/ محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر (دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط الأولى، ١٤٢٢هـ) باب شهود الملائكة بدرًا، رقم/ ٣٩٩٥، جزء/ ٥، صـ ١٦.

والملاحظ في قوله تعالى: (وقال إني برئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب) أن الشيطان أكد القول بـ(إن) كما أكده حين أوهمهم بأنه مجير لهم (وإني جار لكم) فمما لا شك فيه أن هذا ديدنه؛ فلا يزال بالمرء يقرب منه ويزين له كل شر حتى يقع فيه، فإذا وقع تبرأ منه بالقوة نفسها التي تقرب بها إليه.

وقوله: (إني أخاف الله) أي: "أخافه أن يصيبني بمكروه من الملائكة أو يهلكني ويكون الوقت الموعود؛ إذ رأى فيه ما لم يره قبله"[(١)]؛ فإبليس عليه اللعنة "علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك"[(٢)]، وفي ذلك دلالة على ضعف الخائف وقوة المخوف.

ويلاحظ أن إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار في قوله: (إني أخاف الله والله شديد العقاب) إنما هو لاقتضاء المعنى إظهاره؛ حيث إن المعنى الذي تتحدث عنه الآية مما يحتاج في تقريرها إلى إظهار عظمة الله –جل وعلا– وتربية المهابة وإدخال الروعة والتخويف في قلب المخاطب بما يقذفه فيه الاسم الجليل من صفات: العزة، والجلال، والغلبة، والقهر؛ التي يستحضرها السامع عندما يطرق سمعه الاسم الظاهر.

فللفظ الجلالة بمدلوله الكريم وقع عظيم في القلوب، وإظهاره في موضع الإضمار إنما يراد منه إلقاء الروع في قلوب المخاطبين أيًا كان نوعهم؛ لما لهذا

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف/ محمد بن محمد العمادي أبو السعود (دار إحياء التراث العربي، بيروت): ٤/ ٢٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، تأليف/ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق/ سامي بن محمد سلامة (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م): ٤/ ٧٤.

الاسم الجليل من صفات الجلال التي تنخلع لها القلوب، ولو جرى التعبير على الإضمار كما يقتضيه ظاهر الكلام لفاتت تلك المعاني، والمتأمل في هذا الأسلوب يدرك الفرق بينه وبين ما لو جاء على الظاهر، فقال: (إني أخاف الله وهو شديد العقاب) [١].

وختمت الآية الكريمة بقوله: (والله شديد العقاب)؛ فالحق –سبحانه وتعالى– شديد العقاب لمن خالف أمره، وتعدى حدوده، ولم يبال، ولم يتب، وهذ القول "يحتمل أن يكون من اللعين إبليس عليه لعنة الله، أو أن يكون مستأنفًا من جهته سبحانه وتعالى، وادعى بعضهم أن الأول هو الظاهر؛ إذ على احتمال كونه مستأنفًا يكون تقريرًا لمعذرته ولا يقتضيه المقام، فيكون فضله من الكلام وتعقب بأنه بيان لسبب خوفه حيث إنه يعلم ذلك"[٢].

ولا شك أن لفظة (العقاب) في جرسها وقوتها هي الأنسب لمعنى الآية، وأوفق له من لفظة (العذاب)؛ فالآية تذكر بما فعله الشيطان بكفار قريش يوم بدر؛ حيث زين لهم أعمالهم، وأوهمهم أن النصر حليفهم؛ فهم أكثر عددًا وعدةً، وأنه معين لهم، لكنه ما لبث أن خذلهم ونكص على عقبيه لما رأى جنود الله –

(١) جدير بالذكر أن إظهار لفظ الجلالة على خلاف مقتضى الظاهر يكثر في القرآن الكريم؛ يقول الدكتور محمد أبو موسى: "وخذ المصحف واقرأ فيه من أي موضع تشاء تجد هذا الأسلوب وكأنه أصل من أصول البلاغة القرآنية، تجد أسماء الله الحسنى وخصوصًا هذا الاسم الأعظم يقع هذا الموقع في كثير من الجمل القرآنية لينساب نورها الغامر في القلوب، وتشيع مدلولاتها فتتمكن من النفوس زيادة تمكن، وتتقرر في السرائر أحسن قرار، وبذلك تتربى مهابة الحق وحده في الأمة التي يربيها القرآن، فلا يكن في صدرها خشية إلا لله والحق". خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، دكتور/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الثامنة، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م): ٢٨٣.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف/ محمود الألوسي أبو الفضل (دار إحياء التراث العربي، بيروت): ١٠/ ١٦.

تعالى– تقاتل مع المؤمنين...إلخ؛ وقد آثر النظم القرآني التعبير بلفظة (العقاب) صاحبة الإيقاع الشديد العنيف؛ لما يحمله في طياته من المعاني والظلال التي لا تفيض بها لفظة (العذاب) بما يتناسب وحركة المعركة السريعة العنيفة، وتتابع أحداثها، ولا ريب أن صوت القاف بما فيه من صفات القوة يحدث دويًا وضجيجًا عند النطق به مما يساهم في رسم صورة حية لما يحدث من عقاب شديد؛ كما أن حرف القاف يُولد بانطباق يعقبه انفصال مفاجئ، ومن ثمّ فلفظة (العقاب) تكون للشيء السريع؛ أي يكون العقاب في وقته دون تأخير –فالشيطان يخاف أن يعاجله الله –جل وعلا– بالعقوبة في الدنيا– بخلاف حرف الذال المشدد في لفظة (العذاب) ففيه امتداد لذا يكون في الدنيا والآخرة، وبهذا تتناسب كلمة (العقاب) مع سياق الآية أكثر من كلمة (العذاب)؛ فالعقاب فيه سرعة، وقد ورد في القرآن الكريم: (إن ربك سريع العقاب) [الأنعام: ١٦٥]، ولم يرد في القرآن سريع العذاب.

بعد التحليل البلاغي لهذه الآية قد تجلت لنا عدة لفتات، منها:

جاءت هذه الآية في مقام الحديث عما يفعله الشيطان من تزيين الأعمال القبيحة؛ حيث زين لمشركي قريش قتال المؤمنين يوم بدر، وأوهمهم أن النصر حليفهم...إلخ؛ لكن ما لبث أن خذلهم ونكص على عقبيه لما رأى بعينيه جنود الله –تعالى– تقاتل مع المؤمنين، فالآية تنبه على أنّ كلّ ما يزين به الشيطان إنما هو خيالُ لا حقيقة له؛ فالتزيين وعد قطعه على نفسه لما لعنه الله وأخرجه من الجنة.

جاء لفظ الاستجارة على لسان الشيطان بصيغة الاسم الذي يفيد الثبات والاستمرار، كما أنه عمد إلى تأكيد إجارته لمشركي قريش من خلال التعبير بـ(إن) واسمية الجملة في قوله: (وإني جار لكم...) وذلك لبث مزيد من الطمأنينة في نفوسهم، وتعانق مع ذلك التعبير بصيغة اسم الفاعل المنفي (لا غالب) الذي يفيد الثبوت والدوام؛ أي انعدام وجود الغالب البتة، لكن ما لبث أن خذلهم ونكص

على عقبيه لما رأى بعينيه جنود الله تعالى تقاتل مع المؤمنين، وذلك بنفس القوة والتأكيد (إني برئ منكم- إني أرى ما لا ترون- إني أخاف الله)، فالتأكيد هنا يفصح من طرف خفي عن حقيقة عدو الله؛ فتلك هي عادته، ففي كل مرة يزين السوء للضالين حتى يبدو في رونق حسن، فإذا وقعوا فيه وضيعوا أنفسهم تخلى عنهم.

أظهرت الآية الكريمة خبث الشيطان وديدنه من الكذب، والتخلي عن نصرة من تبعه في أضيق الأحوال؛ فحقيقته لا تظهر إلا بعد أن يقع الموسوس له في الخطأ قال تعالى: (فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه).

كشفت المفارقة التصويرية بين دلالة قوله: (وإني جار لكم)، وبين دلالة قوله: (نكص على عقبيه) عما بين الوعد المزعوم الذي لا يعدو وهمًا من قبل الشيطان، وبين الحقيقة المزرية لواقعه المتمثل في النكوص على عقبيه، والتأكيد على أن هذا هو ديدنه في مواجهة الحق المبين.

ظهور التناسب الواضح بين خَتْمِ الآية، وبين معنى الآية وسياقها الذي وردت فيه، وهو ما يؤكد تناسق وتناسب نظم الآية وما ختمت به تناسبًا معجزًا؛ فختم الآية بقوله: (شديد العقاب) يحمل التهديد والوعيد للمشركين.

لكل لفظ خصائصه ودلالته الخاصة به؛ فالنظم القرآني لا يختار الألفاظ جزافًا، وإنما وفقًا لمقتضى الحال، وما يستوجبه مقصد الآية، كما في التعبير بلفظ (العقاب) دون غيره في قوله تعالى: (والله شديد العقاب).

المبحث الثاني: الاستجارة في سياق بيان عظمة الإسلام، ونشر سماحته.

قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

مقام الآية وعلاقتها بما قبلها:

سُبقت آية الاستجارة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

فالحق –سبحانه وتعالى– أمر عباده أن يقتلوا المشركين في أي مكان وجدوهم فيه، وذلك بعد أن تنقضي الأشهر الحرم، وأن يأخذوهم أسرى...إلخ، فلما كان ما ذكر في هذه الآية أمرًا عامًا في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص أمر المولى –عز وجل– نبيه محمدًا –صلى الله عليه وسلم– في آية الاستجارة أن يُجير من أستأمنه منهم، حتى يسمع كلام الله، ثم إعادته إلى دياره التي يأمن فيها، وذلك بأنهم جاهلون بحقيقة الإسلام(١).

التحليل البلاغي:

بدأت آية الاستجارة في سورة التوبة بقوله سبحانه: (وإن أحد من المشركين استجارك....) [التوبة: ٦] بالعطف على جملة: (فإن تابوا...) [التوبة: ٥]؛ لتفصيل مفهوم الشرط، أو بالعطف على جملة: (فاقتلوا المشركين) [التوبة: ٥]؛

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف/ عبد الرحمن بن ناصر ابن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق (مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م): ١/ ٣٢٩.

لتخصيص عمومه؛ أي: إلا مشركًا طلب منك أن تجيره لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام[١].

وقد آثر النظم القرآني التعبير بالشرط؛ لتأكيد حكم الجواب؛ فالتعبير به يحمل معنى التلازم، فيقع الجواب متى وقع الشرط، وعدم التأخر في ورود الجواب يوحي بسرعة الاستجارة.

والتعبير بأداة الشرط (إن) التي تستعمل في الشرط المشكوك في نفيه أو إثباته –غالبًا– "للإشارة إلى أن الشأن أن تقع الرغبة في الجوار من جانب المشركين"[٢]، وإجارة الضعيف من تعاليم ديننا الحنيف، فلا يحتاج إلى التعبير بـ(إذَا) التي تستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه غالبًا، كما أن الشرط تردد بين احتمالين (التوبة وإقامة الصلاة[٣]، والاستجارة) ومن ثمّ فالتعبير بـ(إنْ) لا يشير إلى أن الشرط مشكوك في تحققه أو نادر[٤]؛ فالسين في قوله: (استجارك) توحي بقرب وقوع الفعل في الماضي والتأكيد على ذلك؛ فهي تختص بمعنى تأكيد الفعل[٥]؛ فزيادة المبني تدل على زيادة المعنى، و"لم تكن زيادة همزة الوصل

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠/ ١١٧.

(٢) السابق: الصحفة نفسها.

(٣) قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

(٤) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، تأليف وتأمل/ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م): ٤٧٣/١.

(٥) ينظر: دليل السالك إلى ألفية ابن مالك، بقلم/ عبد الله بن صالح الفوزان (دار المسلم، ط الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٨م): هامش ٢٦٨/١.

والسين والتاء فيها عبثًا، وإنما قصدوا منها المبالغة في حصول الفعل؛ يقول ابن يعيش: وقوة اللفظ مؤذنة بقوة المعنى"(١).

ولا يمنع أن يكون مجيء (إن) –كما قال ابن عاشور– "للتنبيه على أن هذا شرط فرضيٌّ؛ لكيلا يزعم المشركون أنهم لم يتمكنوا من لقاء النبيّ ﷺ فيتّخذوه عُذرًا للاستمرار على الشّرك إذا غزاهم المسلمون"(٢)؛ وجاء في تفسير الرازي "عن ابن عباس قال: إن رجلًا من المشركين قال لعلي بن أبي طالب: أردنا أن نأتي الرسول بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نُقتل، فقال علي: لا إن الله تعالى قال: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) أي فأمنه حتى يسمع كلام الله"(٣)، وهذا لا يعارض ما ذكره ابن عاشور من أن الشرط في قوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك...) شرط فرضي؛ فمقولة هذا الرجل قد تكون وقعت بعد نزول الآية.

وجاء جواب الشرط مقترنًا بالفاء؛ لأنها جملة فعلية فعلها أمر بمعنى الوجوب، ومجيء الفاء مع الجواب يشير إلى سرعة الاستجابة لاستجارة المشركين، وجاءت جملة جواب الشرط من مادة فعل الشرط؛ لأنها جاءت موضحة لإبهام قد يحصل في نفس المتلقي، وهو: كيف نتعامل مع المستجير من المشركين؟ فكان الجواب واضحًا ومفسرًا للإبهام الذي قد يحصل في الذهن.

والأصل في (إن) أن تدخل على الجمل الفعلية، فإذا دخلت على الاسم كان على تقدير فعل قبله يفسره ما بعده أو السياق، وفي هذا تقوية للحكم

(١) ينظر: الصيغ الثلاثية مجردة ومزيدة، تأليف/ ناصر حسين علي (دمشق، المطبعة التعاونية، ١٩٨٩م): ٢١٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١٠/ ١١٧.

(٣) تفسير الفخر الرازي، تأليف/ محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي أبو عبد الله فخر الدين (دار إحياء التراث العربي): ١٥/ ٥٣٠.

وتأكيده؛ لأن تقديم الاسم المرفوع في جملة الشرط يقتضي تكرار الفعل، وفي التكرار تحقيق وتأكيد؛ فتقدير الكلام في الآية: (وإن استجارك أحد من المشركين...).

وقد آثر النظم الجليل التعبير بلفظ (أحد) دون غيره كـ(مشرك)؛ للدلالة على عموم الجنس، فالفعل (استجارك) جاء مسندًا لعموم المشركين بما يصلح معه إسناده لكل فرد منهم، وتقديم (أحد) على (استجارك)؛ للاهتمام بالمسند إليه؛ "ليكون أوّلَ ما يقرع السمع فيقع المسند بعد ذلك من نفس السامع موقع التمكن، وساغ الابتداء بالنكرة؛ لأن المراد النوع، أو لأن الشرط بمنزلة النفي في إفادة العموم"[(١)].

والتعبير بـ(حَتَّى) الغائية التي تدل على امتداد الزمن[(٢)] في قوله تعالى: (حتى يسمع كلام الله) يدل على وجوب الصبر على المشركين حتى يسمعوا كلام الله، وتناسب مع ذلك التعبير بالفعل المضارع (يسمع) الذي يفيد الاستمرار والتكرار.

وفي قوله تعالى: (فأجره حتى يسمع كلام الله) إيجاز؛ فهي جملة وجيزة تحمل في طياتها أشياء كثيرة؛ وهي استقبال المستجير وإقامته، والتفاوض معه، وعرض الإسلام عليه، وترغيبه فيه، ومعايشة المسلمين؛ ليرى آثار الدين في سلوكهم...إلخ.

واقتصر على ذكر السماع؛ لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم، لأنهم من أهل الفصاحة والبلاغة، وقد كان سماع بعضهم لشيء من كلام الله سببًا في

---

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ١١٨.

(٢) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، صَنعَة الحَسن بن قاسِم المُرَادي، تحقيق د/ فخر الدين قباوة، والأستاذ/ محمد نديم فاضل (دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م): ٥٤٢.

هدايته، قال الباقلاني في هذه الآية: "فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة"(١).

"وكلام الله تعالى إما أن نفسره بالمعنى الخاص، وهو القرآن الكريم، وسماع تلاوته وتفهم معانيه ومراميه، وذلك خير في ذاته، وهو سجل الإسلام في كلياته، وإما أن نفسره بمعناه العام وهو الإسلام؛ لأن أوامر الإسلام ونواهيه كلها ترجع إلى كلام الله تعالى لأنها منه، وما كان محمد ينطق عن الهوى"(٢).

وقد عطف قوله: (ثم أبلغه مأمنه...) بحرف العطف (ثم)؛ وهي حرف عطف يُشرك في الحكم ويفيد الترتيب بمهلةٍ(٣)، وذلك يُشعر بضرورة الصبر على المستجير في أرض الإسلام حتى يسمع ويتدبر، ويراجع نفسه بين خير يرتجى، أو البقاء على ما هو عليه، وفي هذه الحالة يجب تركه حتى يبلغ المكان الذي يأمن فيه؛ فقوله: (مأمنه) أي: داره التي يجد فيها أمنه وحمايته، فإضافة المأمن إلى ضمير المشرك يشير إلى أنه مكان الأمن الخاص به، ثم بعد ذلك يصبح حكمه كحكم المصرين على الشرك، ويعامل بما يعاملون به(٤).

وبالتأمل في هذه الآية الكريمة يلحظ التطور من حدود القول في جانب المشركين (استجارك) إلى حدود الإنجاز في فعل الأمر (فأجره) الموجه إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم– ثم يمتد الفعل الإنجازي إلى الأفعال: (يسمع، وأبلغه) واستعمال تلكم الأفعال الإنجازية بدلالتها المعنوية تحقق إيجابية الدين

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق/ أحمد صقر (القاهرة، دار المعارف): ٨.

(٢) زهرة التفاسير، تأليف/ محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ) (دار الفكر العربي): ٦/ ٣٢٣٢.

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني: ٤٢٦

(٤) ينظر: زهرة التفاسير: ٦/ ٣٢٣٣، والتحرير والتنوير: ١٠/ ١١٩، وما بعدها.

الإسلامي، وحفاظه على حقوق الإنسان ورعايتها في أكمل صور الإيجابية والرعاية.

وجاءت جملة (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) في موضع العلة لمضمون الكلام السابق عليها، وجاءت مفصولة عن سابقتها؛ لأنها منها بمنزلة العلة لمضمونها؛ ففيها بيان سبب الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن.

والباء في قوله: (بأنهم) للسببية؛ أي: بسبب أنهم قوم لا يعلمون دين الله؛ فهم يحتاجون إلى سماع كلامه عز وجل، فالذي لا يعلم بحاجة إلى من يأخذ بيده ويعلمه حتى يزيل جهله.

والتعبير باسم الإشارة (ذلك) له دلالة جيدة؛ إذ إنه يميز المشار إليه أكمل تمييز، ومن خلال التعبير به يستحضر ما سبق ذكره في قوله تعالى: (فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)، وبذلك يكون اسم الإشارة "أصلح طُرق التعريف في هذا المقام؛ جمعًا للمعاني المقصودة وأوجزه"(١).

والنفي بـ(لا) في قوله تعالى: (لا يعلمون) يدل على أنه وصف ثابت أو عادة في فاعل الفعل، وآثر النظم الجليل التعبير بها دون غيرها؛ "لاتساع معنى النفي فيها، ولأن امتداد لفظها يوحي بامتداد معناها"(٢).

من خلال التحليل البلاغي لهذه الآية قد تجلت لنا عدة لفتات، منها:

أبانت آية الاستجارة في هذا المبحث عن عظمة الإسلام، ونشر سماحته؛ فالاستجارة في الآية جاءت مؤقتة للذين استبيحت دماؤهم من المشركين، حيث أمر المولى –عز وجل– رسوله –صلى الله عليه وسلم– أن يُجير من أستأمنه

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ١٢٠.

(٢) نتائج الفكر في النحو، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، المتوفى: ٥١٨هـ، حققه وعلق عليه الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ علي محمد معوَّض (دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م): ١٠١.

منهم، حتى يسمعوا القرآن الكريم، والسبب في ذلك: أن الكفار قوم لا يعلمون، فهذا ما يجب على المسلمين نحو المشرك المستجير، وإن بقى على شركه بعد سماعه للقرآن الكريم يُسمح له بالرجوع إلى مكان أمنه واستقراره، ثم بعد ذلك يصبح حكمه كحكم المصرين على الشرك.

جاءت الاستجارة على لسان المولى عز وجل، وصاحبت الاستجارة الاستجابة (فأجره) بترابط وتلازم صوَّرته الفاء الرابطة بين الجملتين، فضلًا عما أوحت به من السرعة.

جاءت الاستجارة في صيغة الشرط وجوابه؛ فالشرط يحمل معنى التأكيد والتلازم، فيقع الجواب متى وقع الشرط، ومجيء الاستجارة في صيغة فعلية (فعل الشرط وجوابه)؛ يدل على طبيعتها التي تكتنفها الحركة والتفاعل مع الحدث.

وكما هو معلوم أن التقييد بالشرط أو غيره يكون لزيادة الفائدة عند السامع وتقويتها؛ لأنه كلما زادت قيود الحكم ازداد ايضاحًا وشمولًا.

الإيجاز هو جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل مع الفصاحة والبيان، وهو من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، والذي كان من أهم ما تميز به أسلوبه؛ لكونه يحوي دلالة أوسع من ألفاظه، وقد ظهر ذلك جليًا في قوله تعالى: (فأجره حتى يسمع كلام الله).

المبحث الثالث: الاستجارة في سياق بيان قدرة المولى –عز وجل– وهيمنته على كل شيء.

قال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

مقام الآية وعلاقتها بما قبلها:

وردت هذه الآية ضمن آيات جاءت أدلة شاهدة على الذين ينكرون البعث ووحدانية الله، وقدرته على إعادة الحياة بعد الموت –حيث اتخذوا من دون الله – تعالى– آلهة، ونسبوا إليه الولد...إلخ–؛ فأمر الله –عز وجل– رسوله –صلى الله عليه وسلم– أن يجري حوارًا مع المشركين لإقامة الحجة عليهم؛ هذا الحوار عبارة عن مجموعة تساؤلات للكفار تكون إجابتهم عليها الشهادة لله –عز وجل– قال تعالى:

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩].

فسأل أولًا عمن له الأرض ومن فيها، ثم سئل عمن له السموات السبع والعرش العظيم، ثم أتي بالعام فسئل –في الآية محل البحث– عمن بيده ملكوت كل شيء[1]، يقول الرازي: "اعلم أنه سبحانه لما ذكر الأرض أولًا والسماء ثانيًا

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، تأليف دكتور/ وهبة بن مصطفى الزحيلي (دار الفكر المعاصر، دمشق، ط الثانية، ١٤١٨هـ): ١٨/ ٨٦، وينظر: مفاتيح الغيب، تأليف/ الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م): ٢٣/ ١٠١.

عمم الحكم ههنا"[١]؛ فالاستفهامات المتتابعة أُنيط بها إقامة الحجج المتتابعة على المخاطبين من الكفار والمشركين.

التحليل البلاغي:

بدأت الآية الكريمة بقوله تعالى: (قل من بيده ملكوت كل شيء...) فالمولى –عز وجل– يأمر نبيه –صلوات الله وسلامه عليه– أن يقول للمشركين المكذبين بالبعث: من بيده ملك كل شيء...؟ ففعل الأمر (قل) يفيد التلقين؛ أي قل لهم يا محمد وبلغهم هذه الرسالة؛ فالمولى –عز وجل– حمّل رسوله هذه الرسالة دون أن يوجه لهم الخطاب؛ للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلًا لمن يخاطبهم الله مباشرة، ولإقامة الحجة عليهم عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم.

والاستفهام بـ(من) في قوله: (قل من بيده...) استفهام تنويري؛ فالإجابة معروفة، ولا يمكن لأحد أن ينكرها، وهذا الاستفهام خرج عن معناه الحقيقي للتقرير والتوبيخ، ونفي من بيده ملكوت عن غير الله؛ أي: يقرون بأن ملكه على الأشياء أتَم ملك، وأنه سبحانه يمنع من المكروه من شاء، ولا يملك أحد من أراده بسوء؛ ففيه تقرير لهم على إثبات أن الملكوت كله بيد الله –سبحانه وتعالى– وفيه توبيخ على عدم إدراك عقولهم لألوهيته، وأنه سبحانه المانع للعقاب، ولا يستطيع أحد أن يمنعه منه، ولذا جاءت لفظة (اليد) في قوله تعالى: (قل من بيده ملكوت...) دالة على الاختصاص؛ فالملكوت بيده تعالى مختصًا به دون سواه، وكون "ملكوت كل شيء بيده كناية استعارية عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشيء به تعالى...وهو في الحقيقة توضيح لاختصاص الملك بأنه بتمام معنى الكلمة فليس لشيء شيء من الملك في عرض ملكه"[٢]. "وقيل (بيده)

(١) تفسير الفخر الرازي: ٢٣/ ٢٩٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، صححه وأشرف على طباعته فضيلة الشيخ/ حسين الأعلمي (منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، بيروت، ط الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م): ١٥/ ٦٠.

تصويرًا وتخييلًا"[١]؛ فهي استعارة تمثيلية تبرز قدرته جل وعلا وهيمنته على ملكوت كل شيء.

وقوله: (ملكوت) الميم واللام والكاف أصل صحيح يدل على قوة في الشيء وصحة، والملكوت من الملك[٢]، والتعبير عن الملك بصيغة (الملكوت) للمبالغة في الملك؛ فالتاء والواو تفيدان المبالغة؛ لذا "فالمراد الملك الشامل الظاهر، وقيل المالكية والمدبرية، وقيل: الخزائن"[٣]؛ فهو الملك الذي لا يرى، ومعلوم أنه أوسع مما يشاهد؛ ثم أكد القدرة والملكوت بأنها تحتوي كل شيء، فأكدها بمؤكد معنوي (كل) ثم احتوى الجمادات والكائنات الحية بقوله: (شيء) فقوله: (ملكوت كل شيء) تثبت ملكيته التامة لكل شيء[٤].

وقوله تعالى: (وهو يجير ولا يجار عليه) جملة حالية تبرز قدرة الله – سبحانه تعالى– وعظمته؛ فجاء المسند إليه معرفًا بضمير الغائب؛ لتوكيد هذه الإجارة، كما أنه يوحي بالفخامة والمنزلة العالية.

والتعبير بالفعل المضارع (يجير) يفيد تجدد الأمر واستمراره، ويفتح الباب أمام كل الناس للإسراع إلى هذا المجير الذي إجارته دائمة، ثم أكد بأنه يختص بهذه الإجارة ولا تطلب من غيره؛ فسبحانه (لا يجار عليه)، وقد آثر النظم الجليل التعبير بـ(لا) النافية؛ لاتساع النفي فيها، ودخولها على المضارع يفيد تجدد النفي ومنفيه.

---

(١) روح المعاني للآلوسي: ١٨/ ٥٨.

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط/ عبدالسلام محمد هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م). (د. ط): ٥/ ٣٥١.

(٣) روح المعاني للآلوسي: ١٨/ ٥٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨/ ١١١.

"وتعدية الفعل بعلى لتضمينه معنى النصرة أو الاستعلاء"[١]، قال الطاهر بن عاشور: "معنى (يجير) يغيث ويمنع من يشاء من الأذى، ومصدره الإجارة فيفيد معنى الغلبة، وإذا عدي بحرف الاستعلاء أفاد أن المجرور مغلوب على أن لا ينال المُجارُ بأذى، فمعنى (لا يجار عليه) لا يستطيع أحد أن يمنع أحدًا من عقابه، فيفيد معنى العزة التامة"[٢].

وكان لطباق السلب في قوله تعالى: (وهو يجير ولا يجار عليه) دور في إبراز قدرة المولى –عز وجل–؛ فالفعل المثبت أفاد قدرته سبحانه وتعالى على أنه يمنع من يشاء من عباده ممن يريد به السوء والضر، والفعل المنفي أفاد أنه لا يقدر أحد أن يمنع السوء والضر عن أحد إذا شاء الله به ذلك؛ فـ"الطباق من الأمور الفطرية المركوزة في الطباع التي لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام"[٣]؛ وله ميزة كبرى؛ تتمثل في إحضار الشيء وضده في ذهن السامع مرة واحدة، وهذا من شأنه إبراز المعنى، وتعميق الإحساس به.

وبناء الفعل المنفي (ولا يُجار) لما لم يسم فاعله؛ "لقصد انتفاء الفعل عن كل فاعل فيفيد العموم مع الاختصار"[٤]؛ فمن خلاله ازداد ظهور قدرته سبحانه وتعالى.

وختم المولى –جل وعلا– الآية الكريمة بقوله: (إن كنتم تعلمون)؛ فبعد الاستفهام الذي يحمل معنى التقرير والتوبيخ في قوله (قل من بيده ملكوت كل شيء...) أعقبه بقوله تعالى: (إن كنتم تعلمون) تكرير لاستهانتهم وتجهيلهم، وهو

(١) روح المعاني للآلوسي: ١٨/ ٥٨.

(٢) التحرير والتنوير: ١٨/ ١١١، وما بعدها.

(٣) الصبغ البديعي في اللغة العربية، تأليف الدكتور/ أحمد إبراهيم موسى (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م). (د. ط): ٤٧١.

(٤) التحرير والتنوير: ١٨/ ١١٢.

أسلوب شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبله؛ والتقدير: إن كنتم تعملون فأخبروني عن ذلك.

وبالنظر لإيثار النظم القرآني التعبير بأداة الشرط (إِنْ) التي لا تدخل إلا على ما يُشكّ في حصوله –غالبًا– يتضح أنه أوقعها أحسن موقع؛ وفي هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم، لما أظهروه من قرائن تكذيبهم وعنادهم.

وفي هذا الشرط توجيه لعقولهم أن يتدبروا ويعملوا عقولهم لإدراك أن الملكوت كله لله، وأنه سبحانه هو المتصرف في كل شيء؛ ففي قوله: (إن كنتم تعلمون) تنبيه لهم ودعوتهم إلى التأمل؛ أي: إن كنتم تعلمون علم اليقين، ولذلك عقب بقوله: (سيقولون لله...) [المؤمنون: ٨٩]؛ أي يجيبون عقب التأمل بأن الملك كله لله الواحد القهار(١).

هذا، ويمكن أن نخلص من خلال التحليل البلاغي لهذه الآية الكريمة إلى ما يأتي:

هذه الآية فيها من الجماليات الأسلوبية والفنية ما يبهر ويدهش، وكلها تظهر قدرة المولى –عز وجل– وهيمنته على كل شيء.

من هذه النواحي الجمالية: أسلوب الأمر في قوله: (قل) الذي يفيد التلقين؛ وذلك حينما أمر الله –عز وجل– رسوله –صلى الله عليه وسلم– أن يجري حوارًا مع المشركين؛ عبارة عن مجموعة تساؤلات للكفار تكون إجابتهم عليها الشهادة لله تعالى، فسبحانه هو الذي يجير من يشاء، ولا يقدر أحد أن يجير على الله، أو يدفع الضر أو الهلاك عمن أراد إهلاكه.

ومنها: الاستفهام في قوله: (قل من بيده...) الذي خرج عن معناه الحقيقي للتقرير والتوبيخ، ونفي من بيده ملكوت عن غير الله.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨/ ١٠٩.

والتعبير لفظ العموم والشمول (كل شيء) الذي يؤكد أن قدرة المولى –جل وعلا– وملكوته تحوي كل شيء من جمادات وكائنات حية...إلخ.

ومن هذه النواحي الجمالية: أن الاستجارة جاءت في هذه الآية في صورة طباق السلب، قال تعالى: (وهو يجير ولا يجار عليه) الذي كان له دور في إبراز قدرته سبحانه وتعالى، وهيمنته على كل شيء، وتعانق مع ذلك بناء الفعل المنفي لما لم يسم فاعله في قوله: (ولا يجار).

ومنها: التعبير بصيغة المضارع (يجير) الذي أفاد أن إجارته سبحانه وتعالى دائمة، ولا تطلب الإجارة من غيره؛ فسبحانه (لا يجار عليه).

المبحث الرابع: الاستجارة في سياق إجابة داعي الله والإيمان به.

قال تعالى:

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

مقام الآية وعلاقتها بما قبلها:

يذكر المولى –سبحانه وتعالى– جانبًا مما أكرم به نبيه –صلى الله عليه وسلم– حين أرسل إليه طائفة من الجن يستمعون منه القرآن، فلما حضروه قال بعضهم لبعض: أنصتوا، فلما أنهى النبي –صلى الله عليه وسلم– قراءته انصرفوا إلى قومهم من الجن محذرين إياهم من عذاب أليم إن لم يؤمنوا به؛ قائلين لهم: إنا سمعنا كتابًا –وهو القرآن– أنزل من بعد التوراة التي أنزلت على موسى –عليه السلام– موافقًا لما قبله من كتب الله –تعالى– يُرشد إلى الحق وإلى طريق مستقيم، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وفي آية الاستجارة يدعوا قومهم إلى إجابة داعي الله والإيمان به، حتى يغفر لهم ذنوبهم ويجرهم من عذاب موجع أليم.

التحليل البلاغي:

أول ما يلحظ في هذه الآية أنها بدأت بنداء القوم (يا قومنا أجيبوا....) بعد ندائهم في الآية السابقة؛ لما في النداء من جذب لانتباههم ولفت لأنظارهم أولًا؛ فقد يكون المخاطب شارد الذهن عمّا يريد المتكلم إخباره به، ولأهمية الأمر المُنادى له ثانيًا، وهو قوله تعالى: (أجيبوا داعي الله وآمنوا به...)؛ إذ إنه أمر يتعلق بإجابة داعي الله والإيمان به، قال الزمخشري عن التعبير بأداة النداء (يا):

"هي لنداء البعيد أو من هو بمنزلته من نائم أو سواه، وإذا نودي بها من عداهم فلحرص المنادى إقبال المدعو عليه، ومفاطنته لما يدعو له"(١).

فالنظم القرآني آثر التعبير بـ(يا) دون غيرها من أدوات النداء؛ لكونها أكثر في الاستعمال، وتدل على بعد المنادي، وفي ذلك دلالة على المنزلة العالية للمخاطب عند المتكلم، وليس لبعد مكانته، ويدل على ذلك بأن اتبع النداء برغبته في إجابتهم داعي الله والإيمان به حتى ينالوا المغفرة والإجارة من النار.

ومن الملاحظ تقديم النداء على الأمر في قوله تعالى: ﴿يَا قومنا أجيبوا...﴾؛ فـ"النداء يوقظ النفس، ويلفت الذهن، وينبه المشاعر، فإذا جاء بعده الأمر صادف نفسًا مهيأة يقظة"(٢)؛ فيتمكن الأمر الوارد عقب النداء في نفس المنادى أشد تمكن، وندائهم بـ(يا قومنا) لإمالة قلوبهم نحو الهدى وإجابة داعي الله، ولأن ذلك أبعث وأدعى إلى امتثالهم للأمر؛ فأسلوب النداء –هنا– جاء للنصح والإرشاد لهؤلاء القوم بالإيمان بالله وبرسوله.

والمقصود بـ(داعي الله) القرآن؛ لأنه سبق في قوله: (إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى) [الأحقاف: ٣٠]، "وأطلق على القرآن (داعي الله) مجازًا لأنه يشتمل على طلب الاهتداء بهدي الله، فشبه ذلك بدعاء إلى الله، واشتق منه وصف للقرآن بأنه (داعي الله) على طريقة التبعية"(٣)، مما يجعلنا نشعر بأن هذه الكتاب مبعوث من الله في الخلق يدعوهم.

---

(١) المفصل في صنعة الإعراب، للزمخشري، تحقيق/ محمد محمد عبد المقصود، وحسن محمد عبد المقصود (دار الكتاب المصري، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠١م): ٤٣٧.

(٢) علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود (مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م): ١٢١/٢.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٦٠، وما بعدها.

وإضافة (داعي) إلى لفظ الجلالة تدل على مكانة هذا الكتاب الكريم؛ فالحق –سبحانه– موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص، فكذلك داعيه، وهذه الإضافة تحوي من طرف خفي على تهديد من لم يجب داعي الله؛ فللنفس أن تتصور عقاب من يحارب داعي الله إلى خلق الله(١).

وقدَّم الأمر بالإجابة على الأمر بالإيمان في قوله تعالى: (أجيبوا داعي الله وآمنوا به)؛ لأن الأمر بإجابة داعي الله يكون في كل ما أمر به، فيدخل فيه الأمر بالإيمان، وهذا من باب عطف الخاص على العام؛ لبيان منزلته، وأنه أهم الأقسام وأشرفها، وللإشارة إلى أنه عند الله بمكان، فالإيمان –كما هو معلوم– يزيد وينقص؛ لذا فهو يحتاج إلى تثبيت وتجديد(٢).

فالأمر في (أجيبوا، وآمنوا) غرضه البلاغي: النصح والإرشاد والترغيب في الإيمان؛ لنيل الجنة، والإجارة من عذاب النار، مما يعني أن الجن مأمورون بالإسلام؛ فالضمير (به) في قوله: (وآمنوا به) عائد إلى (الله)؛ أي: وآمنوا بالله، أو عائد إلى (داعي الله)؛ والتقدير: آمنوا بما جاء به(٣).

وقوله تعالى: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم...﴾ تعليل لإجابة داعي الله والإيمان به؛ أي: إن أجبتم داعي الله وآمنتم به –سبحانه وتعالى– فإنه يغفر لكم من ذنوبكم، ويسترها عليكم ولا يؤاخذكم بها، ويجركم من عذاب أليم؛ فقوله:

(١) ينظر: آل حم الجاثية – الأحقاف دراسة في أسرار البيان، دكتور/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م): ٥٧٣.

(٢) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، تأليف/ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم ابن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) تصحيح/ محمد علي شاهين (دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ): ٤/ ١٣٧، وينظر: آل حم الجاثية والأحقاف: ٥٧٤.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٦١.

(ويجركم...) معطوف على قوله: (يغفر لكم...)، وفي العطف بالواو تنبيه على جمعهم بين هذين الأمرين العظيمين: المغفرة، والإجارة، وفي هذا ما يرغبهم في إجابة داعي الله والإيمان به، كما أن هذا العطف من باب ذكر الخاص بعد العام على اعتبار أن الإجارة وجهًا من وجوه المغفرة الكاملة، لكن لما كان الأمر أمر جذب الانتباه للإيمان أفرد الإجارة بالذكر معطوفًا على المغفرة؛ تنبيهًا على إنقاذهم من عذاب موجع مؤلم.

وتنكير (عذاب) في قوله تعالى: (من عذاب أليم)؛ ليشمل كل أنواع العذاب؛ فالعذاب قد يكون نفسيًا وبدنيًا وظاهرًا وباطنًا، وإطلاق العذاب وعدم تقييده في الدنيا أو الآخرة دلالة على أن الإجارة من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

فلا شك في أن العذاب نتيجة استحقاق لما قام به الإنسان من أعمال سيئة توجب العقوبة، والحكمة من وصف العذاب بأنه (أليم): أن الألم يكون متقطعًا على عكس العذاب؛ يقول أبو هلال العسكري: "الفرق بين العذاب والألم: أن العذاب أخص من الألم، وذلك أن العذاب هو الألم المستمر، والألم يكون مستمرًا وغير مستمر؛ ألا ترى أن قرصة البعوض ألم وليس بعذاب فإن استمر ذلك قلت عذبني البعوض الليلة، فكل عذاب ألم، وليس كل ألم عذابا، وأصل الكلمة الاستمرار"[(١)].

ولعل السر في مجيء العذاب موصوفًا بـ(أليم) مع أنه يحويه في مضمونه: أن العذاب يكون مستمرًا، والألم من صفاته ومستمر معه، لكن درجة الألم ومقداره لا تسير على وتيرة واحدة؛ فقد تزداد وتنقص بحسب مقدار الجرم

(١) الفروق اللغوية، للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه/ محمد إبراهيم سليم (دار العلم والثقافة، ١٩٩٨م). (د. ط): ٢٣٩.

المرتكب، ومن ثمّ فهو يزيد وينقص، ويغلظ ويدق، ويشتد ويخف؛ فكلما زاد الألم دل على أن العذاب بازدياد، والله –عز وجل– أعلم بما اقترفه عباده من ذنوب، فدرجات الذنوب تختلف من أحد لآخر؛ لذا كانت درجة العذاب متغيرة بقوله (أليم).

ولفظة (أليم) تدل على عدل الله –تعالى– في حكمه على العاصيين وحسابه لهم بناءً على مقدار ما اقترفوه من أعمال السوء؛ فكما جعل الجنة منازل ودرجات، ليتفاضل المؤمنون بعضهم عن بعض جعل العذاب في النار كذلك؛ قال عليه الصلاة والسلام عن الجنة: "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة –أراه– فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة"(١)، وقال في أقل عذاب في نار جهنم: "إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه"(٢).

وقد وقف العلماء عند ذكر كلمة (من) في قوله تعالى: (يغفر لكم من ذنوبكم) فمنهم من قال: إن "من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم"(٣)، إشارة إلى أن الغفران يقع على الذنوب الخاصة بين العبد وربه، أما حقوق العباد فلا يمكن غفرانها إلا بعد أن يرضى أصحابها، وقال ابن المنير: "ليس ما أطلقه

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، رقم/ ٧٤٢٣، جزء/ ٩، صـ ١٢٥.

(٢) السابق: كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار، رقم/ ٦٥٦١، جزء/ ٨، صـ ١١٥.

(٣) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف/ أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤١٧ – ٥٣٨هـ) اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه/ خليل مأمون شيحا (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م): ١٠١٦.

من أن الإيمان لا يغفر المظالم بصحيح؛ لأن الحربي لو نهب الأموال المصونة، وسفك الدماء المحقونة ثم حسن إسلامه جبَّ الله عنه إثم ما تقدم بلا إشكال، ويقال: إنه ما وعد المغفرة الكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مبعضة، وهذا منه، فإن لم يكن لاطراده بذلك سر فما هو إلا أن مقام الكافر قبض لا بسط؛ لذلك لم يبسط رجاءه في مغفرة جملة الذنوب، وقد ورد في حق المؤمنين مثله كثيرًا، والله أعلم"(١).

فكلام ابن المنير يدل على أن كل ما وعد الله به أهل الشرك بمغفرة الذنوب لو أسلموا جاءت فيه كلمة (من) فلم يعدهم بأن يغفر لهم ذنوبهم وإنما وعدهم بأن يغفر لهم من ذنوبهم؛ ومن ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله تعالى في سورة نوح: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٢ – ٤].

وفي خطاب الذين آمنوا لا تأتي كلمة (من) وإنما تكون المغفرة شاملة للذنوب كلها كما في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]، وقوله تعالى في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بحاشية الكشاف، للإمام ناصر الدين ابن المنير المالكي (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م): ١٠١٦.

وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ – ١٢][1].

هذا، وبالتأمل في الآية الكريمة، وبالنظر إلى القول بأن من التبعيضية جاءت في خطاب أهل الشرك لو أسلموا، وأنها لم تأت مع خطاب الذين آمنوا أقول –والله أعلم بالصواب–:

إن الآية جمعت بين مغفرة بعض الذنوب والإجارة الكاملة من النار؛ فبمجرد إجابة داعي الله تغفر بعض الذنوب وإذا وصلوا إلى الإيمان تغفر الذنوب كلها، فقوله: (يغفر لكم من ذنوبكم) متعلق بقوله: (أجيبوا داعي الله) وقوله: (ويجركم من عذاب أليم) متعلق بقوله: (وآمنوا به)؛ فمن الملاحظ في هذه الآية أن المعطوف في جملة الأمر (آمنوا) متضمن في جملة المعطوف عليه (أجيبوا) وكذلك المعطوف في جملة الجواب (ويجركم) متضمن في المعطوف عليه (يغفر) فاختص الإيمان من إجابة داعي الله، واختص الإجارة من الغفران، وبهذا يكون غفران بعض الذنوب في حالة إجابة داعي الله، والإجارة من العذاب الأليم في حالة الوصول للإيمان التام.

فمجيء الآية على هذا النسق يشير إلى أن من يجيب داعي الله يغفر له من ذنوبه، ومن يصل إلى درجة الإيمان يجيره سبحانه من النار؛ فالإيمان أعلى رتبة من إجابة داعي الله، والإجارة من النار أعلى رتبة من غفران بعض الذنوب، ويكون تقدير الكلام: (أجيبوا داعي الله يغفر لكم من ذنوبكم، وآمنوا به يجركم من عذاب أليم).

(١) ينظر: آل حم الجاثية والأحقاف، د/ محمد محمد أبو موسى: ٥٧٣.

فالآية جمعت بين غفران بعض الذنوب وغفرانها كاملة؛ فالإجارة من النار تعني أنه لا يوجد ذنوب يعاقب عليها بالدخول في النار، فغفران بعض الذنوب جواب طلب إجابة داعي الله، والإجارة من العذاب الأليم جواب طلب الإيمان بالله أو بما جاء به كتابه، وبهذا تكون الآية تتناسب مع آيات غفران بعض الذنوب والتي لم ينص فيها على الإيمان أو كان الخطاب فيها موجهًا للمشركين، وتتناسب مع آيات غفران الذنوب كاملة والتي كان الخطاب فيها موجهًا للمؤمنين، والتي ليس فيها من التبعيضية، والله تعالى أعلى وأعلم.

ومن الملاحظ أن الآيات التي جاءت فيها (من) التبعيضية جاءت على لسان الرسل والأنبياء، وعلى لسان الجن كما فيه هذه الآية محل الدراسة؛ فجاءت (من) تأدبًا مع الله –سبحانه وتعالى–، وأما ما كان الكلام فيه صادرًا عن المولى –جل وعلا– لم تأت (من) لكرمه سبحانه وعفوه.

هذا، وبعد المعايشة مع هذه الآية الكريمة؛ فقد تجلت لنا عدة لفتات؛ أهمها:

داعي الاستجارة في هذه الآية الدعوة إلى إجابة داعي الله والإيمان به؛ وذلك حين أرسل سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم طائفة من الجن يستمعون منه القرآن، فلما حضروه قال بعضهم لبعض: أنصتوا، فلما أنهى قراءته انصرفوا إلى قومهم من الجن محذرين إياهم من عذاب موجع أليم إن لم يؤمنوا به، حتى يغفر الله –عز وجل– لهم ذنوبهم، ويجرهم من عذاب أليم النار.

جاءت الإجارة بصيغة المضارعة للدلالة على التجدد والاستمرار، وعطفت على المغفرة (يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)؛ من باب ذكر الخاص بعد العام؛ فالإجارة وجهًا من وجوه المغفرة الكاملة، لكن المولى –عز وجل– أفرد الإجارة بالذكر للدلالة على أن من يصل للإيمان الكامل ينقذ نفسه من عذاب موجع أليم في الدنيا والآخرة.

تنكير عذاب في قوله تعالى: (من عذاب أليم) أفاد الشمول؛ فمن يجب داعي الله ويؤمن به ينقذ نفسه من كل أنواع العذاب النفسي والبدني...إلخ،

و(أليم) صفة ثابتة للعذاب وملازمة لمن يستحقها، ومتغيرة في مقدار ألمها، أما العذاب فمتغير بطبيعته مع ملازمة الألم؛ فالعذاب من صفته الألم مهما صغر أو كبر.

في تكرير ضمير المخاطبين في: (لكم، وذنوبكم، ويجركم) ما يوحي بالإكرام، والتقريب، والإنعام، والاهتمام مما يفيض به الحق –سبحانه وتعالى– على صفوة عباده من المؤمنين.

ظهر جليًا أهمية دراسة عطف الجمل على بعضها البعض، وطريقة ترتيبها، وتضمين الثانية في الأولى...إلخ، وقد أشار بذلك فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى بقوله: "...وهذا من النسق الذي نغفله كثيرًا ونتوهم أنه أمر لفظي، وأنه بمعزل عن بلاغة الإعجاز"[1].

(١) آل حم الجاثية والأحقاف، د/ محمد محمد أبو موسى: ٥٧٤.

المبحث الخامس: الاستجارة في سياق بيان أنه لا مجير للكافرين من العذاب إلا المولى جل وعلا.

قال تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

مقام الآية وعلاقتها بما قبلها:

وردت آية الاستجارة هذه في مقام الرد على مشركي مكة؛ حيث كانوا يتمنون موت الرسول –ﷺ– ويتصورون أن بموته سوف يمحى دين الإسلام وينتهي كل شيء.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها: هي أن الآية السابقة: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٧] تحدثت عن حال المشركين يوم القيامة، وأنه آت قريب ولا بد من وقوعه؛ فصورت حالهم وهم في غاية الذلة، وقد ظهرت عليهم علامات الكآبة، ويقابلوا بالتوبيخ والتقريع جزاء ما وبخوا الرسول – ﷺ – وكذبوا بهذا اليوم، ويقال لهم هذا ما طلبتموه في الدنيا وكنتم تستعجلونه إنكارًا واستهزاء(١).

ثم جاءت هذه الآية الكريمة لتقرير أن العذاب واقع بهم لا محالة، فلا محيد لهم عنه، ولا منقذ لهم منه، كما أنه لا يصرفه عنهم هلاك الرسول – ﷺ – ومن معه، فأمر الله –سبحانه وتعالى– رسوله أن يبين لهم أن هذا العذاب الواقع بهم لا يصرفه عنهم أحد؛ فإذا أهلك الله النبي ومن معه أو رحمهم فليس في هذا ما يخلصهم من عذاب الآخرة أو يدفعه عنهم، فموت أو حياة إنسان لا تغني عن غيره شيئًا ممَّا جرّه إليه عمله؛ إذ لا مجير للكافر من

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٠.

عذاب الله إلا بالإيمان به والتوكل عليه، وفي ذلك دلالة على كمال القدرة المطلقة، والملك التام لله عز وجل.

وبذلك تتوافق الآية مع المقصد الرئيس للسورة؛ فهي من أولها إلى آخرها تتحدث عن عظمة الله –جل وعلا– وقدرته؛ حيث ذكرت في أولها أنه –سبحانه وتعالى– مالك الدنيا والآخرة، ثم ذكرت جملة من الدلائل على عظيم ملكه وقوته من خلق الموت والحياة...إلخ، ثم جاءت خاتمة السورة لتوبيخ المشركين على إنكارهم البعث، وعلى استعجالهم موت النبي –صلى الله عليه وسلم–، ويوم القيامة سيعلم أولئك من هو في ضلال مبين، وأنه سبحانه قادر على أن يذهب بالماء، فلا يستطيع أحد الإتيان به ثانية.

التحليل البلاغي:

يلقن المولى –عز وجل– رسوله – ﷺ – الحجج التي يحاجج بها المشركين؛ فبدأت الآية الكريمة بأسلوب من أساليب الأمر وتلقين الحجة (قل)؛ وذلك من أجل بيان فساد معتقداتهم، والاستدلال على العقيدة الصحيحة؛ فقد كانوا يتمنون هلاك النبي –صلى الله عليه وسلم–، وفي تصدير الآية بـ(قل) ما يعطي مؤشر التنبيه على أن الأمر صادر ممن بيده الخلق والأمر.

ومن الملاحظ أن فعل الأمر (قل) تكرر بصورة لافتة ست مرات قبل آية الاستجارة وبعدها[1]؛ فهي توجيهات من المولى –عز وجل– لرسوله –صلى الله عليه وسلم– الداعي إلى الحق بين الخلق لهدايتهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم، وللرد على مزاعم المشركين، وفي تكرار الأمر بالقول "تنبيهًا على أن كل جملة صدرت به كافية في الدلالة على مقصود السورة وعائدة إليه؛ لما

(١) ينظر الآيات: ٢٣ – ٣٠ من سورة الملك.

اشتملت عليه من باهر القدرة، ووافر العظمة"[١]، فهو سبحانه بيده الأمر كله، وبقدرته الهلاك والنجاة.

وسألهم متعجبًا، ومستنكرًا، وموبخًا في قوله: (أرأيتم إن أهلكني الله...)؛ فالهمزة في (أرأيتم) للاستفهام الإنكاري، والتعجب من سوء تفكيرهم، وتوبيخهم على استعجالهم موت النبي –صلى الله عليه وسلم– لكي يستريحوا منه؛ فالآية تنكر عليهم تمنيهم لأمور لا يجنون من ورائها نفعًا، وأن تمنيهم هذا من الحقد والحسد.

و(رأيتم) بمعنى أخبروني، و(إن) شرطية شرطها قوله: (أهلكني الله) وجزاؤها قوله: (فمن يجير...) الذي جاء مقترنًا بالفاء؛ لأنها جملة استفهامية، الغرض منها إنكار أن يكون للكافرين مجير من عذاب الله، ولأن معنى (أرأيتم): أخبروني، وتقديره: أخبروني فمن يجير، قال الشهاب في حواشي البيضاوي: "وفي استعمال أرأيت بمعنى أخبرني مجاز؛ ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيء وإبصاره سببًا للإخبار عنه استعمل رأى التي بمعنى علم وأبصر في الإخبار، والهمزة التي للاستفهام عن الرؤية في طلب الإخبار لاشتراكهما في مطلق الطلب ففيه مجازان"[٢]، "والمعية في قوله: (ومن معي) معية مجازية؛ وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين..."[٣].

ووقوع الشرط في حيّز الاستفهام يضفي على الدلالة قوة، ويشربها معنى التحدي، ومجيء (إن) التي تستعمل في الأمر المشكوك فيه –غالبا– دون (إذا)؛

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تأليف/ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م): ٨/ ٨٦.

(٢) حاشية الشهاب نقلًا عن دلالات التراكيب دراسة بلاغية، دكتور/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الخامسة، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م): ٢٥٣.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٥٣.

للتنبيه على أن هذا شرط فرضي؛ فعلى فرض التسوية بين إهلاك النبي – ﷺ – وصحبه أو رحمتهم فليس في هذا ما يخلصهم من العذاب أو يدفعه عنهم؛ فالعذاب واقع بهم لا محالة، ولا مجير لهم من عذاب الله إلا الإيمان به والتوكل عليه، وهذا من شأنه أن يدعوهم إلى تدبر حالهم، والتفكر في شأنهم؛ فبدلًا من السعي في إهلاك من هو ساع في خلاصهم من العذاب السعي فيما ينجيهم من عذاب رب العالمين!.

ومن الملاحظ أنه من المفترض أن يكون جواب الشرط (لا تنتفعوا ولا تستريحوا بموت النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه) إلا أن النظم القرآني آثر التعبير بالاستفهام الإنكاري (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) أي: لا يجيرهم منه مجير؛ فسبحانه وتعالى هو الذي يهلك من يشاء وينجي من يشاء، وليس المهم في نجاتنا أو إهلاكنا، المهم من يجير الكافرين من عذاب أليم، قال أبو السعود: "أي لا ينجيكم منه أحدٌ متنا أو بقينا"(١)، مما يدل على عظمة الله وتنزيهه، وأنه –سبحانه– بيده الأمر كله.

فختام الآية بصيغة الاستفهام مقررة لحقيقة أنه لا مُجير للكافر من عذاب الله بسبب كفره، كما أن الاستفهام يحمل في طياته التهديد والتخويف لهؤلاء المشركين؛ لتبعث في نفوسهم حالة من التدبر والتفكير في شأنهم، والتراجع عن موقفهم الذي هم فيه.

يلحظ في هذه الآية الكريمة أن النظم الكريم آثر التعبير بالاستفهام في قوله: (أرأيتم) وقوله؛ (فمن يجير...)؛ وذلك لإثارة الذهن ولفت الانتباه، وفي الاستفهام ما ليس في الخبر؛ "فلا جدال أن الاستفهام أوفر أساليب الكلام معانيًا،

(١) إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٠.

وأوسعها تصرفًا، وأكثرها في مواقف الانفعال ورودًا؛ ولذا ترى أساليبه تتوالى في مواطن التأثر، وحيث يراد التأثير، وهيج الشعور؛ للاستمالة والإقناع"[١].

وتعانق مع التعبير بالاستفهام وضع المظهر موضع المضمر في قوله: (الكافرين)؛ ووضع المظهر موضع المضمر له إيحاءاتٌ بلاغية متعددة لا سيما إذا اقتضاه المقام –كما هنا–؛ فـ"وحي الكلمة وعلمها بما يثيره لفظها من شئون في النفس لا يستطيعها الضمير العائد عليها، فأشاروا إلى أن الكناية –يعنون بها الضمير– والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشيف، فإذا كان الضمير يعطي إشارة ذهنية إلى العائد عليه هذه الإشارة تُحْضِرُه في النفس إلا أن قدرًا كبيرًا من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظًا بها، ولا يستطيع الضمير حملها نيابة عنه؛ لأنها تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته المختلفة جد الاختلاف والتي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف"[٢]؛ فوضع (الكافرين) موضع ضميرهم تشنيع وتسجيل عليهم بالكفر، وتعليل نفي الإنجاء به[٣].

والتشنيع بالكفر يُلمح من الآية؛ فالنظم القرآني لم يخاطبهم بالكفر صراحة، فلم يقل: (فمن يجيركم من عذاب أليم) وإنما قال: (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) وهذا الأسلوب أفخم وأبلغ من الأسلوب الصريح في إثبات الحكم؛ لأنه كدعوى الشيء بالبينة والدليل، فإذا ثبت أن من كان مثلهم سينالون العذاب الأليم لزم عقلًا أن يكون هم كذلك، كما أن هذا الأسلوب من شأنه أن يبعث في نفوسهم التفكير والتأمل لإحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، ولو

(١) فن البلاغة، د/ عبد القادر حسين (عالم الكتب، بيروت، ط الثانية، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م): ١٤٥، وما بعدها.

(٢) خصائص التراكيب: ٢٨٣، وما بعدها.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٠.

واجههم بأنهم كافرون، وأن العذاب واقع بهم لا محالة فربما تمادوا في غيّهم، واستمروا في عنادهم، وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام المباشر والتهديد السافر الذي يتراءى لهم من ظاهر لغة الخطاب.

ويُستشعر من التعبير بالمظهر موضع المضمر –هنا– رحمة الله بعباده؛ وتحذيره لهم بالخروج من دائرة الكفر حتى ينجوا من العذاب الأليم، فلديهم من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة ما يجعلهم يخرجون من دائرة الكفر؛ فعلة الحكم عليهم بالعذاب هي الكفر، وبمجرد الإيمان بالله كاف للنجاة من الهلاك والعذاب، و(أل) في (الكافرين) للجنس؛ أي المخاطبين من مشركي مكة وغيرهم ممن يأتي بعدهم(١).

وفي المقابلة بين قوله: (أهلكني، ورحمنا) دلالة على أن المراد بـ(رحمنا): الحياة؛ وسميت الحياة رحمة له –صلى الله عليه وسلم– ولمن معه؛ "لأن في حياته نعمة له وللناس ما دام الله مقدرًا حياته، وحياة المؤمن رحمة؛ لأنه تكثر له فيها بركة الإيمان والأعمال الصالحة"(٢).

وختم الحق –سبحانه وتعالى– الآية بقوله: (من عذاب أليم) بالتنكير، ولم يقل: (العذاب الأليم)؛ وذلك حتى يشمل جميع أنواع العذاب النفسي والجسدي، كما أن التنكير يفيد هنا التهويل والتفظيع(٣)، فتذهب النفس في تقديره كل مذهب.

ومن اللافت أن وصف العذاب بكونه أليمًا قد ورد في مواضع عديدة في القرآن الكريم، و(أليم) صفة مشبهة مشتقة من ألم يألم ألمًا فهو آلم، والألم: الوجع

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٢٩/ ٢١.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٤٩.
(٣) ينظر: السابق: ٢٩/ ٥٣.

الشديد[١]، والأليم: صفة مشبهة معدولة عن اسم الفاعل من آلم المتعدي؛ أي: مؤلم، ومعناه الموجع، والعرب تضع فعيل في موضع مُفْعِل[٢].

وذهب الزمخشري إلى عدّ وصف العذاب بكونه (أليمًا) للمفعول وليس للفاعل على طريقة قولهم: جَدّ جِدّه، وكذلك الألم في الحقيقة للمؤلم كما أن الجدّ للجادّ[٣] على اعتبار أنه مجاز في التركيب؛ "للمبالغة فيكون محوّلًا من فعل لها، ونسبته إلى العذاب مجاز؛ لأن العذاب لا يألم، إنما يألم صاحبه، فصار نظير قولهم: شعر شاعر، والشعر لا يشعر إنما الشاعر ناظمه"[٤]، والراجح أنه مجاز في الإفراد؛ فأليم: "فعيل من الألم بمعنى مفعل، كالسميع بمعنى المسمع"[٥]، وبذلك يكون قوله: (أليم) صفة مشبهة يدل على المبالغة في العذاب، فضلًا عن كونه لازمًا، ومعنى (أليم): شديد الألم، وهو الوجع اللازم الذي يخلص إلى قلوبهم[٦].

---

(١) ينظر: لسان العرب: ألم.

(٢) ينظر: مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة معمر بن المثني التيمي، المتوفى سنة: ٢١٠هـ، عارضه بأصوله وعلق عليه الدكتور/ محمد فؤاد سزكين (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٨م): ١/ ٣٢.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤٦.

(٤) تفسير البحر المحيط، تأليف/ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض (دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م): ١/ ١٨٩.

(٥) السابق: ١/ ١٨١.

(٦) ينظر: نظم الدرر: ١/ ٤٤، وينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، تأليف/ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعه وقدّم له وراجعه/ خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري (المكتبة العصريَّة للطباعة والنّشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م): ١/ ٩٢.

وكون (أليم) بمعنى مفعول فيدل على أن الوصف قد وقع على المعذب بحيث أصبح ثابتًا له، وكأن الوجع فيه صفة لازمة؛ قال ابن عاشور: "والأليم فعيل بمعنى مفعول لأن الأكثر في هذه الصيغة أن الرباعي بمعنى مفعل، وأصله عذاب مؤلم بصيغة اسم المفعول، أي: مؤلم من يعذب به على طريقة المجاز العقلي؛ لأن المؤلم هو المعذب دون العذاب، كما قالوا جد جده، أو هو فعيل بمعنى فاعل من ألم بمعنى صار ذا ألم"(١)، فيكون بذلك الألم صفة للمعذب بمعنى اسم المفعول بعكس اسم الفاعل الذي هو صفة للعذاب على سبيل المجاز العقلي، وعلاقته سببية؛ فلشدة تسبب العذاب في الألم وقوته جُعل كأنه متألم لشدة إيلامه؛ لأن حقيقة اسم المفعول هو ما وقع عليه الفعل، أما إذا لم يقع عليه فالظاهر أن اسم المفعول فيه مجاز.

هذا، وبعد تحليل هذه الآية الكريمة تجلت لنا عدة لفتات، أهمها:

أن المغزى من آية الاستجارة ينسجم مع المغزى العام الذي بنيت عليه السورة؛ من إقرار حقيقة الملك التام، وحقيقة القدرة المطلقة لله رب العالمين.

داعي الاستجارة في هذه الآية بيان أنه لا مجير للكافرين من العذاب إلا الحق -جل وعلا- فكفار مكة كانوا يتمنون موت الرسول - ﷺ - ويتصورون أن بموته سوف يمحى دين الإسلام وينتهي كل شيء.

في تصدير الآية بقوله: (قل) ما يعطي مؤشر التنبيه على أن الأمر صادر ممن بيده الخلق والأمر؛ وهو ما ينسجم مع مقاصد السورة؛ لما اشتملت عليه من باهر القدرة، ووافر العظمة.

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٢٧٨.

جاءت الاستجارة في هذه الآية بصيغة المضارعة ومصاحبة للاستفهام الواقع في جواب شرط (إن) في قوله تعالى: ﴿...فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨]؛ لتقرير حقيقة أنه لا مُجير للكافر من عذاب الله بسبب كفره.

جمعت الآية في طرفيها الاستفهام استهلالًا وختامًا؛ وذلك لإثارة الذهن ولفت الانتباه، وذلك من أجل بيان فساد معتقداتهم، والاستدلال على العقيدة الصحيحة.

مجيء جملة الاستفهام فاصلة قرآنية يسهم في إيقاظ مكامن الحس عند المتلقي، واستثارة وجدانه، وتحريك مشاعره نحو مقتضى الخطاب وموجبه.

والتعبير بالمظهر على خلاف مقتضى الظاهر في قوله: (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) من شأنه أن يبعث في نفوسهم التفكير والتأمل لإحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن؛ فالتعريض والتلميح في كثير من الأحيان أفعل في النفوس من التصريح.

المبحث السادس: الاستجارة في سياق بيان أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم –مع مكانته– لن يجيره من الله –عز وجل– إلا إبلاغ رسالته.

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٢ – ٢٣].

مقام الآية وعلاقتها بما قبلها:

وردت آية الاستجارة هذه في سورة الجن، فبعد أن حُكي في هذه السورة ما أوحى الله إلى رسوله –صلى الله عليه وسلم– من تفاصيل كثيرة عن حياة الجن، وأنهم مكلفون ومحاسبون على أعمالهم...إلخ انتقل إلى تلقينه ما يرد به على الذين أظهروا له العناد، ولبيان عجزه عن شئون نفسه وأن الأمر كله بيد الله، فالغرض من هذه السورة ذكر قصة إيمان الجن؛ لما فيها من العظة والإنذار للمشركين(١).

وعلاقة الآية بما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما أمر رسوله – ﷺ – أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١] أمر كذلك أن يعلن أنه حتى لنفسه لا يملك شيئًا، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢]، فالآية بيان لعجزه – ﷺ – عن شئون نفسه أمام قدرة خالقه –عز وجل– بعد بيان عجزه عن شئون غيره، قال ابن كثير بعد أن فسر

(١) ينظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور، إعداد/ جعفر شرف الدين، تقديم د/ عبدالعزيز ابن عثمان التويجري، مراجعة الأستاذ/ أحمد حاطوم، ود/ محمد توفيق أبو علي (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، لبنان، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م): ١٠/ ١٩٥.

الآية السابقة لهذه الآية: "ثم أخبر عن نفسه أيضًا أنه لن يجيره من الله أحد"(١). والآية التي قبل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١] تقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠] أي: لو أنني أشركت واتبعت أهواءكم فلن يجيرني من الله أحد.

و"هناك اتجاه عند المفسرين يربط بين قوله تعالى: (قل إني لا أملك لكم ضرًا ولا رشدا) وبين (إلا بلاغًا من الله ورسالاته) أي لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات، وتكون في هذه الحالة آية (قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا) معترضة بين الآيتين"(٢).

واختلف في سبب نزول الآية؛ فقيل: إن كفار قريش قالوا للنبي – ﷺ – إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلها فارجع عن هذا فنحن نجيرك(٣).

وأخرج ابن جرير عن حضرمي "أنه ذُكر له أن جنيًّا من الجن من أشرافهم ذا تَبَع قال: إنما يريد محمد أن يجيره الله وأنا أجيرُه، فأنزل الله: (قل إني لن يجيرني...)"(٤).

وروى أبو الجوزاء عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: "انطلقت مع رسول الله – ﷺ – ليلة الجن حتى إذا أتى الحجُون فخطَّ عليَّ خطًّا ثم تقدم إليهم

(١) تفسير القرآن العظيم: ٨/ ٢٤٥.

(٢) ينظر: الأساس في التفسير، تأليف/ سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩ هـ) (دار السلام، القاهرة، ط السادسة، ١٤٢٤هـ): ١١/ ٦١٨٥.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ٢٦، وينظر: الكشف والبيان، تأليف/ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق/ الإمام أبي محمد بن عاشور (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م): ١٠/ ٥٦.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٣/ ٦٦٩.

فازدحموا عليه، فقال سيد يقال له: وِردان: أني أنا أرحلهم عنك، فقال: (إني لن يجيرني من الله أحد)"[1].

التحليل البلاغي:

تشترك هذه الآية مع الآيتين قبلها: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢٠، ٢١] في البدء بقوله: (قل) وهو أسلوب من أساليب الأمر وتلقين الحجة، وهو أمر رباني يبين أهمية ما سيأتي، وضرورة الإسراع في تبليغه؛ فالمولى –عز وجل– يلقن رسوله الحجج ليقذف بها في وجه الذين أظهروا له العناد ولبيان عجزه – ﷺ – عن شئون نفسه، وأن الأمر كله بيد الله، والتعبير بفعل الأمر (قل) يقرر رسالته صلى الله عليه وسلم ونبوته، وأنه –عليه الصلاة والسلام– يبلغ ما يوحى إليه، ولا يتحدث من تلقاء نفسه.

ومن الملاحظ أن المواضع التي ظهرت فيها ضمائر المتكلم العائدة إلى الرسول – ﷺ – تتصدر بأدوات توكيد؛ كالتأكيد بأداة القصر (إنما) في قوله تعالى: ﴿ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحد﴾ والتأكيد بالحرف (إن) في قوله تعالى: ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرًا ولا رشد﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ قل إني لن يجيرني...﴾ مما يدل على أهمية القضايا التي تتناولها؛ لذا فهي تحتاج إلى تثبيت وتأكيد في نفوس السامعين، ولعل السر –أيضًا– استشعار النص القرآني إمكانية إنكار هؤلاء المخاطبين لدعوة الرسول الكريم – ﷺ –، أو أنه يملك الضر والنفع،

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ –٤٥٨هـ)، وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه الدكتور/ عبد المعطي قلعجي (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م): ٢/ ٢٣١، وما بعدها.

وأنه مجيرهم من العذاب...إلخ، فبادر النص القرآني لقطع هذه التخيلات، ودفع تلك الأباطيل بهذا الأسلوب.

فالتأكيد جاء على لسان النبي – ﷺ – في قوله تعالى: (قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحدًا)؛ للتأكيد على معنى التوحيد، وإخلاص العبادة له سبحانه، وأفاد القصر الذي أداته (إنما) قصر العبادة على الله وحده دون سواه تأكيدًا لهذا المعنى.

وجاء التأكيد في قوله تعالى: ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرًا ولا رشدًا ﴾ لنفي النبي – ﷺ –عن نفسه هداية أحد أو إضلاله؛ والمعنى: ليس لي من أمر هدايتكم أو غوايتكم شيء. وعن مقابلة الضر بالرشد في هذه الآية يقول أبو السعود: "كأنَّه أريد لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا ولا غيًا ولا رشدًا فترك من كلا المتقابلين ما ذُكِرَ في الآخر"[(١)]، ولعل السبب في مقابلة الرشد للضر دون الغي؛ لأن الضر سببه وثمرته؛ فأقام المسبب مقام السبب، والمعنى: لا أملك غيًا ولا رشدًا، فذكر الأهم، وإما أن يراد بالرشد النفع فيكون تعبيرًا بالسبب عن المسبب[(٢)].

وجاء التأكيد بـ(إن) في قوله تعالى: (قل إني لن يجيرني) على لسان النبي – ﷺ –؛ لتحقيق معنى نفي أن يكون هناك مجير غير الله؛ أي: قل لهؤلاء إني لن يدفع عني من أمر الله وإرادته أي كائن إن أراد بي سوءًا سبحانه[(٣)]؛

(١) إرشاد العقل السليم: ٦/ ٣٩٤.

(٢) ينظر: الكشاف: ١١٤٨. واللباب في علوم الكتاب، تأليف/ أبو حفص سراج الدين عمر ابن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ) تحقيق الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ علي محمد معوض (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤١٩هـ –١٩٩٨م): ١٩/ ٤٣٦.

(٣) ينظر: تفسير السراج المنير، تأليف/ محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين (دار النشر، دار الكتب العلمية، بيروت): ٤/ ٢٩٦.

فالتأكيد لبطلان هذه التخيلات، ودفع تلك الأباطيل، وتقرير بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي قوله: ﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ﴾ تقديم وتأخير؛ فأصل الكلام: (قل إني لن يجير أحد إياي من الله...)؛ فتقديم المفعول به وشبه الجملة على الفاعل (أحد) للتركيز على أنه –وهو سيد الأنبياء– لن يجيره من اللَّه أحد، فكيف يستطيع أن يجيرهم من اللَّه، ويمنعهم من عذاب اللَّه وعقابه؟ وإذا كان هذا شأنه فكيف بمن هو دونه ؟!.

وتنكير (أحد) يفيد العموم والشمول؛ فلا يستطيع أحد كائنًا من كان أن ينجيني من الله إن عصيته، ولن أجد من دونه ملتجأ ألجأ إليه.

والنفي في قوله تعالى: (ولن أجد من دونه ملتحدا) قد ورد عندما طلبت قريش من رسول الله – ﷺ – أن يترك أمر الدعوة، وقد وعدوه بالحماية والنصرة، فقال لهم: لن يخلصني من عذاب الله أحد، ولن أجد من دونه ملجأ أفرُّ إليه؛ جاء في القاموس: "وألحد إليه مال كالتحد...والملتحد: الملتجأ"(١)، وفي المصباح: "والملتحد بالفتح: اسم الموضع وهو الملجأ"(٢).

وقوله تعالى: (من دونه) حال من (ملتحدًا)؛ أي: مكانًا كائنًا بعيدًا عن الله غير داخل في ملكوته؛ فالملتحد مكان، فلما وصف بأنه من دون الله كان المعنى: أنه مكان من غير الأمكنة التي في ملك الله، وذلك متعذر(٣)؛ فسبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والنفي بـ(لن) وتكراره في الآية؛ تأكيدًا وتحقيقًا للمعنى المنفي، وآثر النظم الكريم التعبير بأداة النفي (لن) دون غيرها؛ لأنها لنفي المستقبل القريب، وليس

(١) القاموس المحيط: لحد.

(٢) كتاب المصباح المنير: لحد.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢٢٧.

على التأبيد؛ لأن التأبيد ليس من خصائص (لن)؛ فالمعنى: لا يجيرني منه سبحانه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة.

وجاء الوصل بالواو في قوله: (لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا) للاشتراك في الحكم الإعرابي، ولعل ما حملته الواو من دلالة هي التأكيد على أن الأمر كله لله تعالى، وحسن الوصل هنا؛ لاتفاقهما في الفعلية والنفي والمضارعة.

ولا يخفى ما في قوله: (لن يجيرني من الله أحد) وقوله: (ولن أجد من دونه ملتحدا) من تناغم صوتي أحدث تناغمًا إيقاعيًا يمتاز بقوته، وقصر زمنه، وذا نغمات عالية بحيث يجلب انتباه السامع، وهذا يتناسب مع مخاطبة الذين أظهروا لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– العناد من المشركين، وما ينتظرهم من عذاب.

والاستثناء الوارد في قوله تعالى: (إلا بلاغًا) فقد يكون المراد منه: قصر قدرة النبي – صلى الله عليه وسلم– على الإبلاغ دون الهداية أو الإغواء؛ أي: لا أملك شيئًا من الضر أو النفع إلا أن أبلغ رسالة ربي، وقد يكون المراد منه: لن يخلصني من عذاب الله إلا أداء واجبي من إبلاغ رسالته، فهو الذي يجيرني من عذابه فقط(١).

وبالنظر إلى قول بعض المفسرين بالربط بين قوله تعالى: ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرًا ولا رشدا ﴾ [الجن: ٢١] وبين قوله تعالى: ﴿ إلا بلاغًا من الله ورسالاته... ﴾ [الجن: ٢٣] أي: لا أملك إلا التبليغ، فهذا فيه أعظم الرشد، وبذلك تكون آية: ﴿ +++ ﴾ [الجن: ٢٢] معترضة "لتأكيد نفي الاستطاعة عن

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري: ١١٤٨.

نفسه، وبيان عجزه على معنى: أن الله إن أراد به سوءًا من مرض أو موت أو غيرهما لم يصح أن يجيره منه أحد، أو يجد من دونه ملاذًا يأوي إليه"[١].

وقوله: (ورسالاته) بالعطف على (بلاغًا) أي: لا أملك إلا أن أبلغ عن الله؛ قال الله كذا...، وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان[٢].

وجاء التعبير عن المفرد بلفظ الجمع في قوله: (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدًا) فالآية ذكرت جزاء العصاة، وبدأ التعبير بلفظ المفرد في قوله: (يعص، وفإن له)، ثم جاء التعبير بالجمع في قوله: (خالدين) حملًا على معنى (من يعص)؛ لأنه في معنى الجمع، ولدلالته على عموم الذل[٣].

وجاء قوله: (أبدًا) لتأكيد معنى الخلود في النار؛ وهذا المعنى مناسب لما ورد في الآيات التي بينت حال المشركين الذين أشركوا وعاندوا الرسول –صلى الله عليه وسلم– حين دعاهم إلى التوحيد، واقترحوا عليه ما اقترحوه من ترك أمر الدعوة، والحماية والنصرة...إلخ، فأعقب ذلك بتهديدهم ووعيدهم بأنهم إن استمروا على العصيان سيلقون نار جهنم خالدين فيها دائمًا وأبدا[٤].

هذا، وبعد تحليل هذه الآية الكريمة اتضح أن:

الاستجارة جاءت في سياق الرد على طائفة من الجن أظهروا العناد للرسول –صلى الله عليه وسلم– وبيان أنه صلى الله عليه وسلم –مع مكانته– لن يجيره من الله –عز وجل– إلا إبلاغ رسالته.

---

(١) الكشاف: ١١٤٨.

(٢) ينظر: السابق: الصفحة نفسها.

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي: ٢٠/ ٤٩٧، والكشاف: ١١٤٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩/ ٢٢٨.

فالآية بيان لعجزه –صلى الله عليه وسلم– عن شئون نفسه أمام قدرة خالقه عز وجل، وقد تعانق التقديم مع التأكيد في قوله تعالى: ﴿ قل إني لن يجيرني مـن الله أحد ﴾ في بيان ذلك.

جاء لفظ الاستجارة في هذه الآية بصيغة المضارعة ومنفي بـ(لن) لبيان أن الرسول الكريم –مع منزلته– لن يجيره من الله –عز وجل– إلا إبلاغ رسالته؛ مما يجسد خطر المسؤولية علينا باتباع أوامر الله ونواهيه حتى ننجو إلى بر الأمان.

الخاتمة

نحمد الله –سبحانه وتعالى– ونشكره على ما وفق وأعان، والصلاة والسلام على النبي العدنان، أفضل الخلق، وهادي البشر إلى الدين القويم.

وبعد..

فبعد أن وفقني الله –عز وجل– لإتمام هذه الدراسة اهتديت من خلالها إلى جملة من النتائج؛ منها نتائج خاصة ذكرت بعض منها عقب نهاية كل مبحث، ومنها نتائج عامة من أبرزها ما يأتي:

- الاستجارة هي: طلب العون والمساعدة لإبعاد خطر وشيك الوقوع، ولكنه لم يقع بعد.
- أبانت الدراسة عن عدد آيات الاستجارة، ومواضع ورودها في القرآن الكريم؛ فقد وردت لفظة (استجار) ومشتقاتها في آيات القرآن الكريم ثماني مرات في ست آيات، ولم تذكر إلا في سياق الحديث عن المشركين، واشتملت هذه الآيات على كثير من المعاني العظيمة التي تدل على وحدانية الله –تعالى– وعظمة الإعجاز القرآني.
- تعددت الصيغ التي جاء عليها لفظ الاستجارة بين الاسم، والفعل المضارع، والماضي، والأمر، ولكل صيغة عطاؤها وإيحاؤها وظلالها؛ فصيغة الكلمة ووزنها وجرسها لها علاقة وثيقة بالمعنى الخاص بها، وكذلك المعنى العام، فكأنما اختص ذاك المعنى بتلك البنية؛ فإذا تغيرت الصيغة تغير المعنى تبعًا لذلك.
- اشتملت آيات الاستجارة على كثير من الأسرار البلاغية واللطائف الأدبية التي تعاونت على إظهار المقصود منها، وقد ظهر جليًا من خلال هذه الدراسة أن الفنون البلاغية التي يستخدمها النظم القرآني من توكيد، ومن ذكر وحذف، وتعريف وتنكير...إلخ لها أثر كبير في المعنى؛ فلا نقف على كلمة أو جملة حدث فيها تعريف وتنكير، وتقديم وتأخير...إلخ إلا أخذتنا الدهشة من عظمة ذاك الإعجاز، ودقة ذاك البيان؛ فكل كلمة في النظم القرآني لها موقعها الخاص بها، بل إن هذا يتعدى للحرف أيضًا.

وقد كشفت الدراسة عن دقة اختيار اللفظة القرآنية، فكلّ لفظة تستقلّ بمعنى لا يكون في غيرها؛ فالنظم القرآني لا يختار الألفاظ جزافًا، وإنما وفقًا للمقام الذي وردت فيه، وما يستوجبه مقصد الآية.

- براعة الاستهلال وحسن الختام في آيات الاستجارة؛ فقد استهلت كل آية بما يدل على الغرض منها، ثم ختمت بما يتناسب مقصدها، وذلك بأبلغ الأساليب وأرفع المعاني.
- مجيء جملة الاستفهام فاصلة قرآنية يسهم في إيقاظ مكامن الحس عند المتلقي، واستثارة وجدانه، وتحريك مشاعره نحو مقتضى الخطاب وموجبه.
- الإيجاز هو جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل مع الفصاحة والبيان، وهو من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، والذي كان من أهم ما تميز به أسلوبه؛ لكونه يحوي دلالة أوسع من ألفاظه.
- أوضحت الدراسة أن النظم القرآني يلجأ إلى تأكيد المعنى وتقويته عن طريق استخدام المحسنات البديعية؛ فهي ليست لمجرد تحلية اللفظ فقط، وإنما تطرب الأذن، وتثير الذهن، وتشد الانتباه إلى الغرض المقصود.
- كشفت الدراسة عن أن كل قيد يضاف إلى الجملة فإن المعنى يزداد به قوة وتمكنًا وإيضاحًا وشمولًا، ولو رفع هذا القيد فإن بلاغة الجملة تخبو وحسنها يتوارى.
- ظهر جليًا أهمية دراسة عطف الجمل على بعضها البعض، وطريقة ترتيبها، وتضمين الثانية في الأولى...إلخ، وأن هذا النمط العالي من البلاغة يحتاج إلى أن يخصص له الباحثون نصيبًا وافرًا من البحوث الجادة بما يكشف عن عظمة النظم القرآني وسر إعجازه.

كما يمكن التعرف على كثير من اللطائف البلاغية من خلال قراءة البحث.

أشكر المولى جلت قدرته على توفيقه وامتنانه وتيسيره أولًا وأخيرًا، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

د/ أحمد محمد محمد عبد الفتاح

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا:

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف/ محمد بن محمد العمادي أبو السعود (دار إحياء التراث العربي – بيروت).

٢- الأساس في التفسير، تأليف/ سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩هـ) (دار السلام، القاهرة، ط السادسة، ١٤٢٤هـ).

٣- إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق/ أحمد صقر، (دار المعارف، القاهرة).

٤- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ).

٥- آل حم الجاثية – الأحقاف دراسة في أسرار البيان، دكتور/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).

٦- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بحاشية الكشاف، للإمام ناصر الدين ابن المنير المالكي (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

٧- الانتماء في الشعر الجاهلي، سليم فاروق أحمد (من منشورات اتحاد الكتاب العربي، ١٩٩٨م).

٨- البلاغة العالية (علم المعاني)، تأليف/ عبد المتعال الصعيدي، قدّم له وراجعه وأعد فهارسه د/ عبدالقادر حسين (مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، ط الثانية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م).

٩- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، تأليف وتأمل/ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

١٠-تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق/ عبدالستار أحمد فراج (مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

١١-التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، تأليف/ محمد الطاهر بن محمد ابن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) (مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م).
١٢-تفسير البحر المحيط، تأليف/ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض (دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م).
١٣-تفسير السراج المنير، تأليف/ محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين (دار النشر، دار الكتب العلمية، بيروت).
١٤-تفسير الفخر الرازي، تأليف/ محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي أبو عبد الله فخر الدين (دار إحياء التراث العربى).
١٥-تفسير القرآن العظيم، تأليف/ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق/ سامي بن محمد سلامة (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م).
١٦-تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف/ أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤١٧ – ٥٣٨هـ) اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه/ خليل مأمون شيحا (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م).
١٧-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج المؤلف د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي (دار الفكر المعاصر، دمشق، ط الثانية، ١٤١٨هـ).
١٨-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف/ عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق (مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م).

١٩-جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف/ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق/ أحمد محمد شاكر (مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).
٢٠-الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تأليف/ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر (دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط الأولى، ١٤٢٢هـ).
٢١-الجامع لأحكام القرآن، تأليف/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق/ هشام سمير البخاري (دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).
٢٢-الجنى الداني في حروف المعاني، صَنعَة الحَسن بن قاسِم المُرَادي، تحقيق د/ فخر الدين قباوة، والأستاذ/ محمد نديم فاضل (دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
٢٣-الجوار في الشعر العربي حتى العصر الأموي (حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ١١، الرسالة ٧٠، ١٩٩٠م).
٢٤-خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، دكتور/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الثامنة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).
٢٥-دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨هـ)، وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه الدكتور/ عبد المعطي قلعجي (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
٢٦-دلالات التراكيب دراسة بلاغية، دكتور/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الخامسة، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م).

٢٧-دليل السالك إلى ألفية ابن مالك، بقلم/ عبد الله بن صالح الفوزان (دار المسلم، ط الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٨م).
٢٨-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف/ محمود الألوسي أبو الفضل (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان).
٢٩-زهرة التفاسير، تأليف/ محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ) (دار الفكر العربي).
٣٠-سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الشامي، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م).
٣١-الصبغ البديعي في اللغة العربية، تأليف الدكتور/ أحمد إبراهيم موسى (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م).
٣٢-صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١هـ) (ألفا للنشر والتوزيع، ط الأولى، ٢٠١١م - ١٤٣٢هـ).
٣٣-الصيغ الثلاثية مجردة ومزيدة، ناصر حسين علي (دمشق، المطبعة التعاونية، ١٩٨٩م).
٣٤-علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود (مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
٣٥-فتح البيان في مقاصد القرآن، تأليف/ أبو الطيب محمد صديق خان ابن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعه وقدّم له وراجعه/ خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري (المكتبة العصريَّة للطباعة والنّشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
٣٦-الفروق اللغوية، للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه/ محمد إبراهيم سليم (دار العلم والثقافة، ١٩٩٨م).
٣٧-فن البلاغة، د/ عبد القادر حسين (عالم الكتب، بيروت، ط الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م).

٣٨-القاموس المحيط، للفيروز ابادي (الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
٣٩-الكشف والبيان، تأليف/ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق/ الإمام أبي محمد بن عاشور (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).
٤٠-لباب التأويل في معاني التنزيل، تأليف/ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) تصحيح/ محمد علي شاهين (دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ).
٤١-اللباب في علوم الكتاب، تأليف/ أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ) تحقيق الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ علي محمد معوض (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م).
٤٢-لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠ - ٧١١هـ)، تحقيق/ ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السيد (دار التوفيقية للطباعة).
٤٣-مبادئ القانون الدولي العام، محمدي حافظ غانم (مطبعة دار النهضة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٧م).
٤٤-مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة معمر بن المثني التيمي، المتوفى سنة: ٢١٠هـ، عارضه بأصوله وعلق عليه الدكتور/ محمد فؤاد سزكين (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٨م).
٤٥-المجتمع العربي بين التاريخ والواقع، حسن عبد الرازق منصور، (أمواج للطباعة والتوزيع، الأردن، ط الثانية، ٢٠١٣م).
٤٦-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي (بيروت، المكتبة العلمية).
٤٧-معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف د/ أحمد مختار عمر (عالم الكتب، ط الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).

٤٨-معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط/ عبدالسلام محمد هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
٤٩-مفاتيح الغيب، تأليف/ الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
٥٠-المفصل في صنعة الإعراب، للزمخشري، تحقيق/ محمد محمد عبد المقصود، وحسن محمد عبد المقصود (دار الكتاب المصري، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠١م).
٥١-الموسوعة القرآنية خصائص السور، إعداد/ جعفر شرف الدين، تقديم د/ عبد العزيز ابن عثمان التويجري، مراجعة الأستاذ/ أحمد حاطوم، ود/ محمد توفيق أبو علي (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، لبنان، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
٥٢-نتائج الفكر في النحو، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، المتوفى: ٥١٨هـ، حققه وعلق عليه الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ علي محمد معوَّض (دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
٥٣-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تأليف/ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).